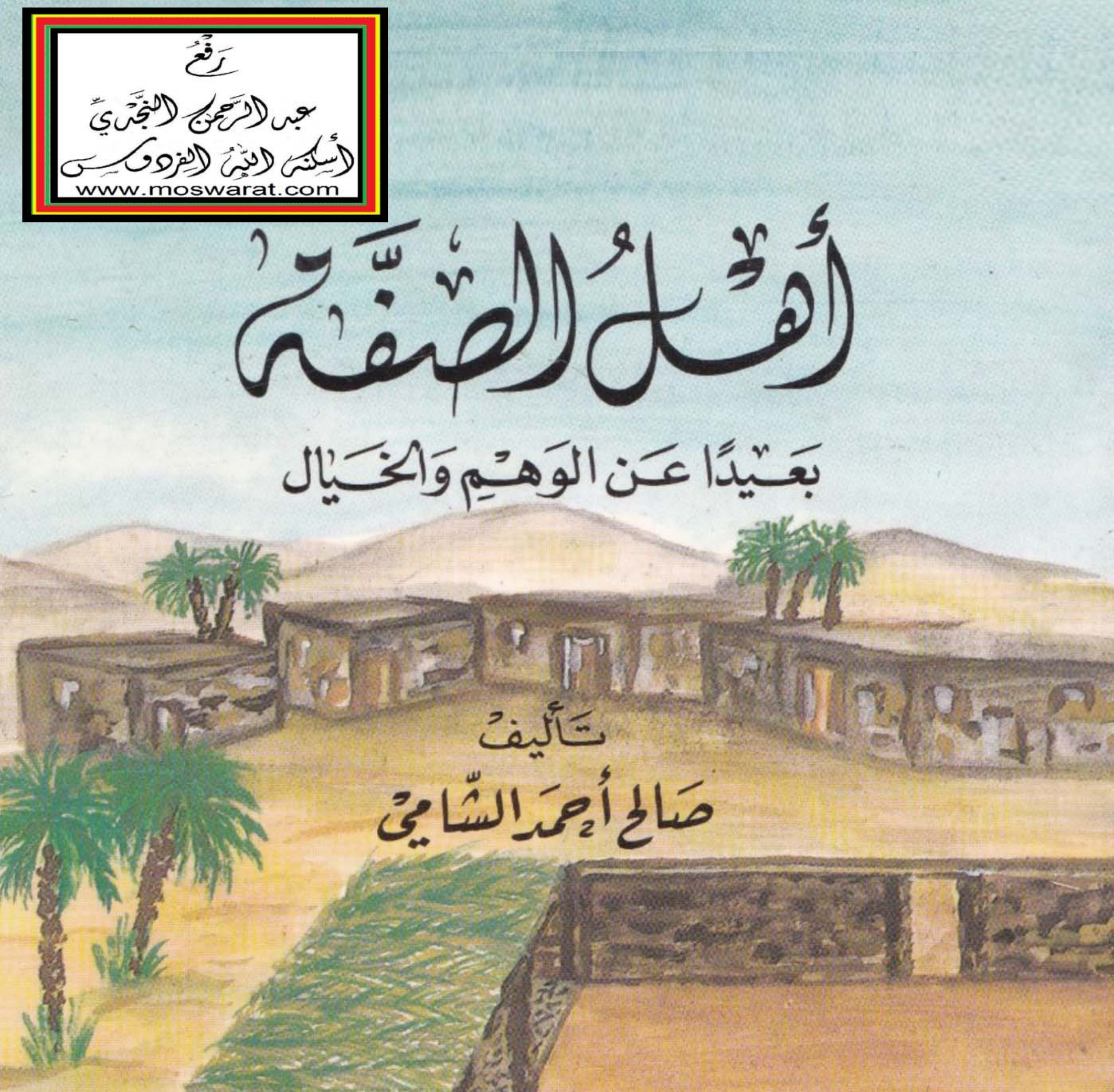


أهل الصفة

بعيدًا عن الوهم والخيال

تأليف
صالح أحمد الشامي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أهل الصفة

بعيداً عن الوهم والخيال

تأليف
صالح أحمد الشامي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩١م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فهذه صفحات قليلة، نتحدث فيها عن «أهل الصفَّة» رضي الله عنهم، وهي ـ في قلتها ـ لا تمثل الجهد المبذول في إعدادها.

والتصور القائم في أذهان كثير من الناس عن أهل الصفَّة يخالطه الوهم أحياناً، ويكمله الخيال أحياناً أخرى.. الأمر الذي جعل الصورة مشوَّهة، قد تغيرت أكثر معالمها، فباتت وكأنها لا تمت إلى الأصل بصلة.

ولم يكن من السهل تجميع أجزاء الصورة الأصل،

فقد احتاج ذلك إلى وقت غير قصير في تتبع الجمع من كتب السيرة والتراجم.

وقد جاء البحث في بابين:

ـ تناولت في الأول منهما رسم الصورة الصحيحة لهم، بدءاً من منشأ الفكرة وحتى نهاية دور الصفَّة.

ـ وناقشت في الثاني الأوهام والأخطاء والافتراءات التي نسجت حولهم أو ألصقت بهم، والتي شكلت في مجموعها تلك الصورة المشوهة.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً له، إنه نعم المسؤول.

غرة رجب ١٤١٢هـ
٥ / ١ / ١٩٩٢م

صالح أحمد الشّامي

مصادر البحث

لم يكن من السهل ـ كما قلت ـ جمع مادة البحث عن أهل الصفَّة، ذلك أن كتب السيرة لم تذكر عن هذا الموضوع شيئاً يذكر، والسبب في هذا يرجع إلى أن النزول في الصفَّة لا يعتبر ميزة لمن نزل بها، فهي ليست مشهداً من المشاهد كبدر وأحد وبيعة العقبة وبيعة الرضوان، مما يعد مفخرة لمن حضره.

فسيرة ابن هشام ـ على سبيل المثال ـ وهي من أهم مراجع السيرة، لم تذكر شيئاً عن الصفَّة أو عن أهلها.

وفي طبقات ابن سعد لا نجد سوى صفحة واحدة وبعض أخرى عنهم (١/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦).

وفي شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، وهو موسوعة في السيرة، لا نجد غير ما يقرب من الصفحة

الواحدة عند ذكره لبناء المسجد (١/ ٣٧٠ ـ ٣٧١)، وبضعة أسطر عند حديثه عن «بئر معونة» (٢/ ٧٥ ـ ٧٦).

وإذا ما تتبعنا كتب الحديث لم نجد سوى كلمات عابرة، كأن يذكر راوي الحديث أنه كان ممن نزل الصفَّة. ونجد كذلك أحاديث أبي هريرة في وصف فقر أهل الصفَّة، وهي أحاديث قليلة. لا تخرج عن إطار وصف فقرهم..

وقد تناول بعض العلماء هذا الموضوع:

فقد جمع أبو عبد الرحمن السلمي (٣٣٠ ـ ٤١٢هـ) جملة من أخبارهم، وهو ممن اعتنى بذكر أخبار النساك والصوفية.

وقد سبقه إلى ذلك أبو سعيد بن الأعرابي..

وجاء أبو نعيم الأصبهاني صاحب الحلية فجمع ما ذكره السلمي وابن الأعرابي وأضاف إليه. قال ابن حجر: «وقد اعتنى بجمع أسماء أهل الصفَّة أبو سعيد بن الأعرابي، وتبعه أبو عبد الرحمن السلمي

فزاد أسماء، وجمع بينها أبو نعيم في أوائل «الحلية» فسرد جميع ذلك»[1].

وقد رأيت في ترجمة تقي الدين السبكي أن له كتاباً في الموضوع سماه (التحفة في الكلام على أهل الصفَّة) ولم أره. وما أدري هل هو مطبوع أم لا؟

وكتب بعد ذلك عن أهل الصفَّة فريقان من الناس:

ـ المتصوفة الذين يرون في أهل الصفَّة المثل الأعلى.. وأن صفَّتهم هي الدليل على صحة مسلكهم في اتخاذ الزوايا.. وعندهم ألصقت بأهل الصفَّة أشياء وأشياء.

ـ وكتب الفريق الآخر في تزييف ما ألصق بأهل الصفَّة.. ومن ذلك ما كتبه الإمام ابن تيمية في كتابه الفتاوى (١١/٣٧ ـ ٨١).

وما كتبه هذان الفريقان لا يعطينا إلَّا أشياء يسيرة عن أهل الصفَّة لأن أكثره في الأوهام والافتراءات وردِّها.

ومما يدلنا على قلة المادة في هذا الموضوع أن

(١) فتح الباري ١١/٢٨٧.

العلّامة الشيخ عبد الحي الكتاني قد كتب فصلاً عنهم في كتابه (نظام الحكومة النبوية، المسمى: التراتيب الإدارية) قال في أوله: «أردت أن أبسط القول هنا على أهل الصفَّة وأحوالهم وعددهم ومن كان على طعامهم..»[1]، ومع ذلك لم يتجاوز ما كتبه تسع صفحات معظمها في الاستدلال بوجود الصفَّة على صحة وجود الزوايا، وفي الحديث عن انقطاع أهل الصفَّة عن التكسب. وقد صرح بذلك فقال: «وإنما جلبت النقول هنا في انقطاع أصحاب الصفَّة عن التكسب لتهجم متهور عليهم رضي الله عنهم فنسب لهم الجري وراء الدنيا...»[2].

وإذن يعدّ ما كتبه الأصبهاني في الحلية مرجعاً مهماً باعتباره متضمناً لما كتبه السلمي وما كتبه ابن الأعرابي وما أضافه هو بعد ذلك. ومجموع ما ذكره ترجمة ومائة، وقال بعد ثلاث وتسعين ترجمة: «قد أتينا على من ذكرهم الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي ونسبهم إلى توطين الصفَّة ونزولها، وهو أحد من لقيناه. وممن له العناية التامة

---

(١) التراتيب الإدارية للكتاني ١/٤٧٣.
(٢) المصدر السابق ١/٤٧٩.

بتوطئة مذهب المتصوفة وتهذيبه على ما بينه الأوائل من السلف. . ولذلك ضممت إليه ما ذكره الأغر الأبلج أبو سعيد بن الأعرابي رحمه الله. وكان أحد رواة الحديث والمتصوفة»[1].

ثم قال الأصبهاني بعد ذلك: «ذكر جماعة من سكان الصفَّة وقطان المسجد، ترك ذكرهم السلمي وابن الأعرابي، فمنهم»[2] فذكر ثماني تراجم.

وقد بدأ الأصبهاني حديثه عن أهل الصفَّة بمقدمة، خلط فيها ما هو متعلق بهم بغيره. مثل الحديث عن آية من سورة الكهف: ﴿واصبر نفسك. . .﴾ وآية من سورة الأنعام: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم. . .﴾ وهما مما نزل بمكة ولا علاقة لهما بالحديث عن أهل الصفَّة.

وطريقته: أن يذكر اسم صاحب الترجمة، ويذكر أنه من أهل الصفَّة، وبعد ذلك يذكر ما روى من الأحاديث أو بعض الأحاديث التي رواها. . ومعظم ما روى لهم لا علاقة له بالصفَّة.

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٢٥.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٢٦.

وقد أبقى على جميع ما ذكره السلمي وابن الأعرابي على الرغم من ذكرهما من ليس من أهل الصفَّة وهو يشير أحياناً إلى ذلك، إلَّا أنه لم يلتزم البيان في جميع التراجم.

وقد أشار ابن حجر إلى عدم الدقة في التأكد من نزول الصفَّة.. فقال: «وقد اعتنى بجمع أصحاب الصفَّة ابن الأعرابي والسلمي والحاكم وأبو نعيم ـ وفي بعض ما ذكروه اعتراض ومناقشة، لكن لا يسع هذا المختصر تفصيل ذلك»[1].

وأذكر على سبيل المثال: أن جميع الذين تحدثوا عن أهل الصفَّة اتفقوا على أنه لم ينزلها أنصاري، وقد صرح بذلك الأصبهاني فقال: «ولا يعرف لواحد منهم ـ الأنصار ـ ذكر في أهل الصفَّة»[2]. ومع ذلك ذكر إحدى عشرة ترجمة ـ تبعاً للسلمي ـ أصحابها من الأنصار، دون أن ينبه على ذلك[3].

---

(١) فتح الباري ١/٥٣٦.

(٢) حلية الأولياء ١/٣٥٧.

(٣) وهم أصحاب التراجم الآتية أرقامها (٥١، ٥٢، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٦، ٧١، ٧٥، ٧٧، ٩٥، ١٠٠).

وكثيراً ما ذكر من خالط أهـل الصفَّة دون أن يكـون منهم، وترجم له في جملتهم.

ومع ذلك فـإن هذه التـراجم تلقي لنا الضـوء الكبير على الصفَّة وأصحابها كما سنرى ذلك في ثنايا البحث.

كان لا بد من ذكر هذه الكلمة عن مصادر البحث، ليكون القارىء الكـريم على تصور لـطبيعة البحث الـذي بين يـديه، ويعـذر الكاتب في تقصيـره، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

• • •



الباب الأول

مُعطيات التصوُّر الصَّحيح عَن أهلِ الصفَّة

الفَصْل الأوَّل
المَدِينَة عِنْدَ الهِجْرَة

نحاول في هذا الفصل بيان الوضع الاجتماعي والاقتصادي في المدينة عند الهجرة لنكون على تصور صحيح للمدينة حين بدأت هجرة المسلمين إليها من مكة. وهو أمر ذو علاقة وثيقة ببحثنا عن أهل الصفَّة.

الوضع السكاني:

كانت يثرب سكناً للأوس والخزرج، وعلى أطرافها قامت حصون اليهود، وهي: حصن بني قينقاع، وحصن بني قريظة، وحصن بني النضير.

وكان اليهود يأوون ليلاً إلى حصونهم، وينتشرون في النهار فيكونون مع أهل المدينة، أو يكون أهل المدينة في أسواقهم.

الوضع الاقتصادي:

ويثرب بلد زراعي، يغلب على أهله العمل بالزراعة، وقد غلب اليهود فيها على التجارة كما أنهم سيطروا على الصناعة التي كان العرب يترفعون عن العمل بها، الأمر الذي جعل حركة البلد الاقتصادية بأيديهم. فأكبر سوق في البلد يطلق عليه «سوق بني قينقاع» والحانات ومحلات بيع الخمور بأيديهم، والصناعة من صياغة وحدادة وغيرها بأيديهم..

الوضع بعد الهجرة:

وبدأت الهجرة، وبدأ المسلمون بالوصول إلى المدينة.. وكانت هجرة النبي ﷺ مع صاحبه أبي بكر في شهر ربيع الأول.

وكانت هجرة المسلمين من مكة في ظروف قاسية صعبة، بلغت فيها العداوة ذروتها بينهم وبين قريش.. ولذا كان الواصلون إلى المدينة بين رجلين:

ـ رجل نجا بنفسه ولم يستطع حمل شيء من أمواله معه..

ـ ورجل استطاع أن يخرج معه ماله كله أو بعضه.

فلما وصلوا المدينة، استطاع من حمل معه شيئاً من المال أن يؤمن شؤون نفسه بنفسه، كأبي بكر وعمر وعثمان..

وكذا بعض الذين لم يحملوا معهم المال اعتمدوا على خبرتهم في التجارة فنزلوا إلى السوق يبيعون ويشترون.. منهم عبد الرحمن بن عوف.. فلم يكلفوا غيرهم مساعدتهم.

وهناك الفريق الآخر الذي كان لا بد من مساعدته في تأمين السكن أولاً ثم الحاجات الأخرى.

وقد فتح الأنصار بيوتهم لإخوانهم المهاجرين، وكانت القرعة هي التي تعين نزول المهاجر على الأنصاري.

وقام الأنصار باستضافة إخوانهم بكرم كبير لا نجد له نظيراً في التاريخ.. فقاسموهم أموالهم وثمار بساتينهم.. وغير ذلك.

هذه الضيافة لم تكن ليوم، أو لأسبوع، أو لشهر.. ولكنها استمرت سنوات.

وآخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، ليذهب وحشة المهاجرين بعد تركهم أهليهم وديارهم . .

وقد سجل القرآن الكريم للأنصار هذا الكرم وأثنى عليهم شهادة من الله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1] .

الوضع الاقتصادي بعد الهجرة :

كانت التشكيلة السكانية ــ قبل الهجرة ــ تتألف من اليهود من جانب، ومن الأوس والخزرج من جانب آخر .

وطرأ تعديل كبير على هذا الوضع إذ أصبح السكان ثلاث طوائف :

ــ المسلمون : المهاجرون والأنصار : وهم المسلمون من الأوس والخزرج .

---

(١) سورة الحشر : الآية ٩ .

ـ **المشركون**: وهم من بقي على كفره من الأوس والخزرج والذين تحول قسم منهم فيما بعد ليشكل فئة المنافقين.

ـ **اليهود**، بطوائفهم التي سبق ذكرها.

وإذا أردنا أن نتعرف على الوضع العددي التقريبي، علينا أن نسير مع الزمن قليلاً إلى الأمام، ففي غزوة أحد التي خرج لها جميع القادرين على القتال من المسلمين بلغ عددهم ألف مقاتل. ورجع عبد الله بن أُبيّ بثلاثمائة وهم فئة المنافقين وبقي سبع مئة يمثلون المؤمنين الصادقين.

وإذا كان المقاتلون هم شريحة من الشرائح السكانية التي يمكن أن نعتمد عددها مقياساً نسبياً لعدد السكان الكلي أمكننا أن نقول:

إن الذين رجعوا مع ابن أبي ليسوا من الإسلام في شيء، وإنما أسلموا بعد انتصار المسلمين في غزوة بدر حفاظاً على كيانهم الاجتماعي، وبالتالي فهم لم يقدموا للمهاجرين شيئاً من قبل لأنهم لم يكونوا مسلمين، ولن يقدموا شيئاً من بعد لأنهم منافقون.

أما السبعمائة فهم يشكلون المؤمنين الصادقين من الأنصار والمهاجرين، وإذا كان لنا أن نقدر عدد المهاجرين في هذا الوقت قلنا إنهم يقاربون الثلاثمائة، وذلك استناداً إلى ما ورد من أن عدد المجاهدين الذين اشتركوا في غزوة بواط ـ والتي كانت في شهر ربيع الأول من العام الثاني ـ كان مائتين وجميعهم من المهاجرين. وهذا الرقم ليس أكثر من مؤشر إذ لم يكن الذين خرجوا إلى تلك الغزوة هم جميع القادرين على الجهاد.

وإذا قدرنا أن عدد المهاجرين ثلاثمائة فذلك يعني أن عدد الأنصار ـ أوسهم وخزرجهم ـ أربعمائة.

وهذه النسبة تلقي لنا الأضواء على الوضع الاقتصادي.

ولا بد من إضافة الملاحظات التالية:

١ ـ المدينة يومئذٍ بلد صغير له طاقة محدودة في استيعاب القادمين.

٢ ـ الأنصار فيهم الغني والفقير، والفقراء منهم ربما كانوا غير قادرين على المساهمة في مساعدة القادمين بسبب فقرهم.

٣ ــ وفي ضوء هاتين الملاحظتين نستطيع القول بأن القادرين على استضافة المهاجرين ومساعدتهم كانوا بعدد القادمين إن لم يكونوا أقل منهم.

ومع هذا كله فقد استطاع الأنصار بعددهم المشار إليه أن يستوعبوا الدفعات الأولى للهجرة، وهي التي سبقت الرسول ﷺ بوصولها إلى المدينة والتي جاءت بعده على مدى فترة غير قصيرة.. ومن المعلوم أنه بعد قدومه ﷺ أصبح الأمر بيده في إنزال الناس القادمين وتوزيعهم.

● ● ●



الفَصل الثاني

قبل تحويل القبلة

كرم الأنصار:

لقد كان استقبال الأنصار للمهاجرين يمثل ذروة الكرم والبذل والعطاء. ولقد تمثل ذلك بمظاهر متعددة منها:

- تقديم السكن للقادمين من المهاجرين.
- تقديم الطعام والنفقة.
- تقديم المنائح إلى الرسول ﷺ يضعها حيث شاء.
- الهدايا المتنوعة..

ومما يبين لنا مقدار هذا الكرم وحسن المواساة، ما أخرجه أحمد عن أنس قال: (قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم، أحسن

مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً في كثير. لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: «لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم»)[1].

إن هذا النص ليبين بوضوح كم كان البذل كبيراً. .

جوهر المشكلة:

على أن الرسول ﷺ بحكمته ونظرته البعيدة للأمور لم يكن ليسمح لهذا الضغط بالاستمرار على الأنصار. فمهما يكن من أمر فإن إمكاناتهم محدودة، وباب الهجرة مفتوح، والمهاجرون لا يحدهم عدد. ولذا بدأ ﷺ يمهد للتخفيف عن الأنصار ما أمكنه ذلك.

بيت العزاب:

وُصِفَ بيت سعد بن خيثمة بأنه «بيت العزاب»، والذي يبدو أنه ﷺ عرف أن سعد بن خيثمة كان عزباً لا أهل له، وأن في داره سعة فأنزل عنده المهاجرين

(١) المسند ٣/٢٠٠.

الـذين كانـوا عزابـاً أو وصلوا إلى المـدينـة منفـردين دون أهلهم، ولهــذا سمـي هــذا البـيت «بـيت الـعــزاب»[1] وكان ﷺ يجلس للناس فيه في بعض الأحيان[2].

ومثل هذا الإجراء يخفف عن الأنصار عبء العزاب في أمر السكن.

المبيت في المسجد:

وبعد بناء المسجد، وجد بعض العزاب فيه المكان المناسب للمبيت. فالمسجد من بعد صـلاة العشاء وحتى صلاة الصبح، ليس فيـه عمل يشغله، ولـذا فمن الممكن الاستفادة منه في هذه الفترة التي هي الـوقت الذي يـأوي فيـه النـاس إلى الـراحـة والنـوم وفق سنَّـة الله تعــالى في خلقه.

وفي نـوم عبد الله بن عمـر الدليـل الصـريـح على ذلك.

ففي حـديث نـافــع عنـد البخــاري، أن عبـد الله

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٢/٣٨٢.

(٢) انظر الإصابة، ترجمة سعد بن خيثمة.

ابن عمر أخبره أنه (كان ينام وهو شاب عزب لا أهل له في مسجد النبي ﷺ)[1].

وعبد الله بن عمر هاجر مع أبيه، وأغلب الظن أن المكان الذي نزل فيه عمر كان مكاناً ضيقاً فوجد ابنه عبد الله في المسجد بعد بنائه مكاناً يقضي فيه ليله[2].

ونعتقد أن غيره كان يفعل هذا أيضاً. فالمسجد في هذا الوقت خالٍ والنوم فيه لا يضايق أحداً. ولا شك بأن الرسول ﷺ كان على علم بذلك.

ولعل المبيت في المسجد هو أحد العوامل التي مهدت لنشوء الصفَّة.

● ● ●

---

(١) متفق عليه: رقم البخاري (٤٤٠) ورقم مسلم (٢٤٧٩).

(٢) وقد عنون البخاري لهذا الحديث بقوله: «باب نوم الرجال في المسجد». قال ابن حجر: أي جواز ذلك وهو قول الجمهور. وعن مالك التفصيل بين من له مسكن فيكره، وبين من لا مسكن له فيباح. فتح الباري ١/٥٣٥.

الفَصل الثالث

تحوّل القبلة ونشوء الصفّة

تحويل القبلة:

كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس. فكان يضع الكعبة أمامه ويتجه إلى بيت المقدس.

فلما هاجر لم يكن هذا الأمر ممكناً في المدينة، فاضطر إلى استدبار الكعبة والاتجاه إلى بيت المقدس.

ولما بنى مسجده الشريف ﷺ جعلت قبلته إلى بيت المقدس. وكان البناء عبارة عن جدار يحيط بالأرض، طوله باتجاه القبلة (٧٠) ذراعاً، وعرضه (٦٠) ذراعاً، وجعل ارتفاع الجدران فوق سطح الأرض خمسة أذرع[١].

---

(١) انظر شرح سنن أبي داود للسبكي ٤/٥٨؛ وشرح الزرقاني ١/٣٦٩؛ و(فصول في تاريخ المدينة) لمؤلفه علي حافظ ص ٥٢.

وأقيمت فيه الصلاة أياماً، ثم إن الصحابة شكوا الحر، إذ لم يكن للبناء سقف[1]، وعندها سقف الجزء الأمامي الأقرب إلى القبلة بجريد النخل، وجعل خشبه وسواريه من جذوع النخل[2].

إذن كان البناء عبارة عن جزء مظلل والقسم الأكبر ظل مكشوفاً.

وجاء تحويل القبلة بعد سبعة عشر شهراً من الهجرة أي في شهر شعبان من السنة الثانية، وذلك تلبية لرغبته ﷺ حيث قال تعالى:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[3].

وإزاء تنفيذ الأمر الرباني كان لا بد من تعديل وضع

---

(١) شرح الزرقاني ١/٣٦٩.

(٢) من رواية البخاري.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٤.

المسجد، الذي أصبحت قبلته في الجانب المقابل تماماً . .

فترك البناء الأول على ما هو عليه . .

وسقف الجانب الآخر من المسجد حيث أصبح مكان الصلاة وفقاً للاتجاه إلى الكعبة المشرفة.

الصفَّة:

وتحول البناء القديم للمسجد ليصبح ما أطلق عليه اسم «الصفَّة»[1].

ومن الغريب أن كثيراً ممن تحدثوا عن الصفَّة لم ينتبهوا إلى هذا الجانب، أو أنهم عرَّفوها كمكان قائم بغض النظر عن أصله.

قال القاضي عياض: الصفَّة ظلة في مؤخر مسجد رسول الله ﷺ يأوي إليها المساكين، وإليها تنسب أهل الصفَّة[2].

---

(١) أصلها من صفَّة البيت: وهي شيء كالمظلّة أمامه.

(٢) نظام الحكومة النبوية المسمى بالتراتيب الإدارية ١/٤٧٤.

وقال ابن تيمية: الصفَّة كانت في مؤخر مسجد النبي ﷺ في شمالي المسجد بالمدينة المنورة[1].

وقال ابن حجر: الصفَّة مكان في مؤخر المسجد النبوي مظلل أُعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل[2].

وهكذا تجمع الأقوال كلها على أمر واحد، أنها مكان في مؤخر المسجد، ولكن كيف حدث ذلك؟

ويجيبنا الإمام الحافظ الذهبي فيقول: إن القبلة قبل أن تتحول كانت في شمال المسجد، فلما حولت القبلة بقي حائط القبلة الأولى مكان أهل الصفَّة[3].

وإذن:

فالصفَّة لم تبن لهذا الغرض، وإنما وجد البناء، وكانت الفكرة جاهزة، وهي نوم بعض الصحابة في المسجد، والحاجة ملحة إلى وجود بناء يأوي إليه

---

(١) الفتاوى ١١/٣٨.

(٢) فتح الباري ١/٥٣٥ و٦/٥٩٥.

(٣) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ١/٣٧٠.

العـزاب، فكانت الاستفـادة من البناء القـديم للمسجـد، فأضحى اسمه الصفَّة.

وهكـذا جاء الحـل لمشكلة سكن العزاب تلقـائياً، ولم يكن نتيجـة لإعـداد مسبق، وإنمـا هـو الاستفـادة من الإمكانات المتوفرة.

● ● ●

الفصل الرابع
أهل الصفّة

النازلون في الصفَّة:

ظل تتابع وصول المهاجرين ـ أفراداً وجماعات ـ إلى المدينة مستمراً منذ أذن رسول الله ﷺ بالهجرة وحتى فتح مكة حين أعلن أن لا هجرة بعد الفتح.

وكان الرسول ﷺ بعد استقراره هو الذي يقوم بتأمين سكن القادمين وأسباب حياتهم.

وكان القادم من المهاجرين إذا كان له من يعرفه بالمدينة نزل عنده وإلَّا توجه إلى رسول الله ﷺ.

جاء في حديث طلحة بن عمرو ـ عند أحمد وابن حبان والحاكم ـ: (كان الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له بالمدينة عريف نزل عليه، فإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفَّة، فكنت فيمن نزل

الصفَّة)[1].

والـذين ليس لهم من يعـرفهـم كـانوا يتـوجهون إلى رسـول الله ﷺ فإمـا أن يـوجههم إلى الصفَّـة أو يجـد لهم سكناً خارجها عند بعض الصحابة.

جاء في المسند عن عبـادة بن الصامت قـال: (كان رسـول الله ﷺ يُشْغَـل، فـإذا قـدم رجـل مهـاجـر على رسول الله ﷺ دفعه إلى رجل منا يعلمه القرآن، فدفع إليَّ رسول الله ﷺ رجلاً، وكان معي في البيت، أعشيه عشـاء أهل البيت، فكنت أقرئه القرآن)[2].

أمـا الذين لا يجـد لهم مكانـاً فـإنهم يستقـرون في الصفَّة.

وإذن فعـامة أهـل الصفَّة الـذين نـزلـوا بهـا هم من المهاجرين، ولم ينزل بها أنصـاري إذ لا حاجـة للأنصـار بذلك، فالمدينة بلدهم وفيها دورهم وعشائرهم.

قـال أبـو نعيم الأصبهـاني في تـرجمـة حجـاج بن

(١) فتح الباري ١١/ ٢٨٦ والمسند ٣/ ٤٨٧.
(٢) المسند ٥/ ٣٢٤.

عمرو: . . إن ذكره في أهل الصفَّة وَهْم، لأنه من الأنصار، ولا يعرف لواحد منهم ذكر في أهل الصفَّة[1].

وكلهم أيضاً من العزاب الفقراء، قال أبو هريرة: (وأهل الصفَّة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال، ولا على أحد)[2].

الصفَّة إقامة مؤقتة:

على أن الذي ينزل في الصفَّة، فإنما يقيم فيها مؤقتاً ريثما يوجد له مكان، أو يجد عملاً . . فيغادرها . .

ولقد كان تعبير أبي هريرة رضي الله عنه دقيقاً غاية الدقة حينما وصفهم بأنهم (أضياف الإسلام) فهم إذن ضيوف. ومهما طالت إقامة الضيف فإنها ستنتهي عند انتهاء حاجته.

فقد جاء في إحدى روايتي هجرة عبد الله بن أم مكتوم أنه قدم المدينة بعد بدر بيسير فنزل الصفَّة مع

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ١/٣٥٧.

(٢) رواه البخاري برقم (٦٤٥٢).

أهلها، فأنزله النبي ﷺ دار مخرمة بن نوفل[1].

وهكذا كان نزوله ريثما هيىء له المكان المناسب.

قال أبو نعيم: كان عدد أهل الصفَّة يختلف بحسب اختلاف الحال، فربما اجتمعوا فكثروا، وربما تفرقوا إما لغزو أو سفر، أو استغناء فقلوا[2].

وقال ابن تيمية: لم يكن جميع أهل الصفَّة يجتمعون في وقت واحد، بل منهم من يتأهل، أو ينتقل إلى مكان آخر يتيسر له.. فهي مأوى فقراء المهاجرين، فمن تأهل منهم أو سافر، أو خرج غازياً خرج منها[3].

الصفَّة.. أخيراً:

يتبين من حديثنا السابق أن الصفَّة هي آخر الحلول التي كان يلجأ إليها المهاجر، وما كان يأتي إليها إلاَّ بدافع الضرورة.

ـ فالمهاجر الذي جاء بماله معه، يحل شؤون

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٤.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٣٤٠ وفتح الباري ١١/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

(٣) الفتاوى ١١/ ٤١ و ٨١.

نفسه بماله، كما يفهم من قول أبي هريرة السابق (.. لا يأوون على أهل ولا مال..). فالذين معهم المال يجدون بواسطته المأوى وقضاء الحاجات المعاشية.

ـ والمهاجر الذي له عريف في المدينة.. كان ينزل عنده.

ـ والمهاجر الذي يجد العمل كان يعتمد على دخله من عمله. والمثال على ذلك سلمة بن الأكوع، الذي جاء مهاجراً إلى المدينة في السنة الرابعة للهجرة. فعمل عند طلحة بن عبيد الله، ولم يلتحق بأصحاب الصفَّة، وقال عن نفسه: (وكنت تبيعاً لطلحة بن عبيد الله، أسقي فرسه، وأحسُّه، وأخدمه وآكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله ﷺ)[1].

أما المهاجر الذي لم يتيسر له واحد من الأسباب السابقة، فهو الذي كان يجد نفسه مضطراً للنزول في الصفَّة ريثما يجد المخرج.

---

(١) رواه مسلم برقم (١٨٠٧).

وهكـــذا لم يكن يـصـــل إلى الـصفَّـــة مـن جمـلة المهاجرين إلاَّ العـدد اليسير، بـالنسبة لعـدد القادمين إلى المدينة.

نفقة أهل الصفَّة:

تبين لنا أن أهل الصفَّة ليسوا أناساً ثـابتين، مقيمين في الصفَّة بشكل دائم لا يتغيـرون، وأن المكث فيها إنمـا هـو وضع اضـطراري يلجأ إليـه من به حـاجـة، وبمقـدار الحاجة.

قـــال ابن تيميـــة: لم يكن جميـــع أهـــل الصفَّـــة يجتمعون في وقت واحد، بـل منهم من يتأهـل، أو ينتقل إلى مكان آخر يتيسر له، ويجيء ناس بعد ناس.. فكانوا تـارةً يقلون وتارةً يكثـرون، فتارةً يكـونون عشـرة أو أقل، وتارةً يكونون عشرين وثلاثين وأكثر، وتـارةً يكونـون ستين وسبعين[1]..

وبنـاءً على ذلك، فلم يكن هنـاك مورد ثـابت ينفق عليهم منـه، بل من أين يمكن تـوفيـر المـورد الثـابت في

---

(١) الفتاوى لابن تيمية ١١/٤١.

تلك الظروف الصعبة؟ وإنما كان ﷺ يؤمن ذلك بوسائل مختلفة.

وهذا أبو هريرة يبين لنا بعض ذلك فيقول: (وأهل الصفَّة أضياف الإسلام... إذا أتته ﷺ صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها)[١].

وعن بشير بن الخصاصية قال: (أتيت رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام، ثم قال لي: «ما اسمك؟» قلت: نذير، قال: «بل أنت بشير»، فأنزلني بالصفَّة، فكان إذا أتته هدية أشركنا فيها، وإذا أتته صدقة صرفها إلينا)[٢].

وقد يلجأ ﷺ بعض الأحيان إلى توزيعهم على أصحابه. ففي حديث عبد الرحمن بن أبي بكر، قال: (إن أصحاب الصفَّة كانوا أناساً فقراء، وإن النبي ﷺ قال مرة: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤٥٢).

(٢) حلية الأولياء ٢/٢٦، وكذا أخرجه ابن عساكر كما نقله الكاندهلوي في حياة الصحابة ١/٨٠.

عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس» ـ أو كما قال ـ وإن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة..)[1].

وعن يعيش بن طخفة بن قيس الغفاري قال: كان أبي من أصحاب الصفَّة. فأمر رسول الله ﷺ بهم، فجعل الرجل ينقلب بالرجل، والرجل بالرجلين، حتى بقيت خامس خمسة، فقال رسول الله ﷺ: «انطلقوا» فانطلقنا معه إلى بيت عائشة[2]..

وكان أصحاب حقول النخيل يساهمون في ذلك، فكان الرجل منهم يأتي بالقنو والقنوين.. يضع ذلك في المسجد عند أهل الصفَّة.. ولما كان بعضهم يأتي بالقنو فيه الشيص والحشف.. أنزل الله تعالى:

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾[1].

---

(١) متفق عليه: رقم البخاري (٣٥٨١) ورقم مسلم (٢٠٥٧).
(٢) أخرجه في المسند ٣/ ٤٢٩.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٦٧.

فكانوا بعد ذلك لا يأتي الواحد منهم إلَّا بصالح ما عنده[1].

وكان ﷺ يطلب من الناس أن يوجهوا صدقاتهم إليهم، فقد جاء في المسند: أن فاطمة لما ولدت حسيناً، طلب منها ﷺ أن تحلق رأسه وتتصدق بوزن شعره من فضة على أهل الصفَّة[2].

وقد كان ﷺ يقدم حاجتهم على غيرها مما يطلب منه، فقد أتي بسبي مرة، فأتته فاطمة رضي الله عنها تسأله خادماً. فكان جوابه ـ كما في مسند الإمام أحمد ـ: «والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفَّة تطوي بطونهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيعهم وأنفق عليهم من أثمانهم»[3].

وقد كان الفقراء من الأنصار أيضاً يساهمون بهذه النفقات بجهدهم.. فقد جاء في صحيح مسلم عن

---

(١) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن.

(٢) المسند ٣/٣٩٠ ـ ٣٩١.

(٣) عن فتح الباري ٦/٢١٦، وأصل الحديث في البخاري برقم (٣١١٣).

أنس بن مالك أن رجالاً من الأنصار فيهم خاله حَرَام: (.. يقرؤون القرآن ويتدارسونه بالليل يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفَّة وللفقراء..)[1].

فهؤلاء لا يملكون ما يسهمون به سوى جهدهم وثمن الحطب الذي يجمعونه..

تلك صورة تبين مصادر الإنفاق على الصفَّة. ويظهر معها عظم العبء الذي كان يحمله ﷺ، في سبيل هذه الدعوة.

على أنه مما تجدر الإشارة إليه، أن حال أهل الصفَّة ربما كان في بعض الأوقات أحسن منه في أوقات أخرى، وذلك تابع للجو الاقتصادي العام الذي يكون في

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٤٧) من كتاب الإمارة، وهو عند البخاري برقم (٤٠٩٠).

وقد ظن بعضهم أن هؤلاء الأنصار من أهل الصفَّة، وهو غلط، فليس هناك نص يذكر أنهم من أهل الصفَّة، وإنما كانوا يسهمون في مساعدة أهل الصفَّة، يشاركهم في ذلك بعض أهل الصفَّة.

المدينة. ولذا قد يسوء الحال في أوقات الشدة، ويحسن في أوقات الرخاء.

مكانتهم وفضيلتهم:

هل من ميزة أو فضيلة لأهل الصفَّة على غيرهم من الصحابة؟

إن المعلومات السابقة تعطي الجواب على هذا السؤال، فالصفَّة ليست أكثر من إجراء اقتصادي لحل مشكلة اقتصادية، ولو كانت فضيلة لما سعى الذين ينزلون فيها إلى الخروج منها، ولما كانت آخر ما يفكر فيه المهاجر عندما تستعصي عليه السبل الأخرى.

وقد سئل ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عن ذلك فقال:

(وأما تفضيل «أهل الصفَّة» على العشرة [المبشرين بالجنة] وغيرهم فخطأ وضلال، بل خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، كما تواتر ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب موقوفاً ومرفوعاً. وكما دل على ذلك الكتاب والسنَّة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمة العلم والسنَّة، وبعدهما عثمان وعلي، وكذلك سائر أهل

الشورى مثل طلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف، وهؤلاء مع أبي عبيدة بن الجراح ـ أمين هذه الأمة ـ ومع سعيد بن زيد هم العشرة المشهود لهم بالجنة.

قال عز وجل في كتابه:

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾[1].

ففضل الله السابقين ـ قبل فتح الحديبية ـ إلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم على التابعين بعدهم.

وقال الله تعالى:

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ

(١) سورة الحديد: الآية ١٠.

(٢) سورة الفتح: الآية ١٨.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾[1].

فرضي الله سبحانه على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

وقد ثبت في فضل البدريين ما تميزوا به على غيرهم، وهؤلاء الذين فضلهم الله ورسوله، فمنهم من هو من أهل الصفَّة، وأكثرهم لم يكونوا من أهل الصفَّة.

والعشرة لم يكن فيهم من هو من أهل الصفَّة إلَّا سعد بن أبي وقاص، فقد قيل: إنه أقام بالصفَّة مرة. وأما أكابر المهاجرين والأنصار مثل الخلفاء الأربعة، ومثل سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وعباد بن بشر، وأبي أيوب الأنصاري، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، ونحوهم فلم يكونوا من أهل الصفَّة.

بل عامة أهل الصفَّة إنما كانوا من فقراء المهاجرين، لأن الأنصار كانوا في ديارهم)[2].

ولعل الشبهة في هذا الأمر جاءت من الفهم

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

(٢) فتاوى ابن تيمية ١١/٥٦ ــ ٥٧.

الخاطىء للأحاديث التي تحدثت عن ثواب الفقراء وعظم أجرهم. وذلك ما سوف نتحدث عنه في فصل قادم.

عدد أهل الصفَّة:

ليس هنـاك من اتفـاق على عـددهم، ولكن أكثـر الأقوال ذهبت إلى أنهم بحدود أربعمائة. قـال ابن تيمية: جملة من أوى إلى أهل الصفَّة مـع تفرقهم قيـل أربعمائـة وقيل أكثر، وعدهم السيوطي أربعمائة. وسبقهما إلى ذلك السهروردي وابن السلماني في العوارف والزمخشـري في الكشاف[1]..

وقد اعتنى بجمع أسـامي أصحاب الصفَّـة ومناقبهم وأحـوالهم: ابن الأعرابـي وأبـو عبد الـرحمن السلمي في كتـاب «تـاريـخ أهـل الصفَّـة» والحـاكم في الإكليـل، وأبـو نعيم في الحلية فـزادوا عنـده على مـائـة وعنـد كـل ما ليس عند الآخر[2].

وقال في حلية الأولياء، بعد أن ذكر طائفة منهم:

---

(١) نظام الحكومة النبوية، للكتاني ١/ ٤٨٠.
(٢) المصدر السابق ١/ ٤٨٠.

قد أتينا على من ذكرهم أبو عبد الرحمن السلمي ونسبهم إلى توطين الصفَّة ونزولها. وهو أحد من لقيناه، وممن له العناية التامة بتوطئة مذهب المتصوفة.. وضممت إليه ما ذكره الأغر الأبلج أبو سعيد بن الأعرابي رحمه الله وكان أحد أعلام رواة الحديث والمتصوفة[1].. ثم قال صاحب الحلية: ذكرُ جماعةٍ من سكان الصفَّة ترك ذكرهم السلمي وابن الأعرابي[2]. فذكر ثماني تراجم..

ولقد بلغ مجموع ما ذكره صاحب الحلية ترجمة ومائة، ولكنه ذكر فيهم كثيراً ممن ليس منهم، وذلك لأنه ذكرهم تبعاً لابن الأعرابي والسلمي. وقد بين أن بعضهم من الأنصار، وهم ليسوا من أهل الصفَّة كما هو متفق عليه، ولقد ذكر فيهم أيضاً من ليس منهم مثل عبد الله بن مسعود، وبلال وغيرهما ممن كان لهم السبق في الهجرة، وكانوا ممن آخى الرسول ﷺ بينهم وبين الأنصار، يوم لم تكن الصفَّة بعد قد وجدت.

وذكر سعد بن أبي وقاص بينهم من الخطأ. قال

---

(١) حلية الأولياء للأصبهاني ٢/٢٥.

(٢) حلية الأولياء ٢/٢٦.

في الحلية نقلاً عن السلمي: وذكَرَ سعد بن أبي وقاص في أهل الصفَّة مستدلاً بقوله: فينا نزلت:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾[1].

ومن المعلوم أن هذه الآية مكية نزلت قبل الهجرة وقبل وجود الصفَّة[2].

وإذن فما بين أيدينا من أسماء أهل الصفَّة لا يصل إلى المائة، وهذا دليل آخر على أن الذين نزلوا الصفَّة ليس لهم أي ميزة على غيرهم من الصحابة، فلو كان ذلك مكرمة زائدة لاعتُني بذكرها كغيرها من المشاهد التي اعتني بها مثل أسماء الذين شهدوا بدراً، ومثل شهداء أحد ومثل أصحاب البيعات.. الذين اعتنى كتاب السيرة بإحصائهم وذكرهم.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٢.

(٢) وقد نبه الحافظ ابن حجر إلى أن ما ذكروه من أسماء أهل الصفَّة يحتاج إلى المناقشة فقال: «وقد اعتنى بجمع أصحاب الصفَّة ابن الأعرابي والسلمي والحاكم وأبو نعيم، وعند كل منهم ما ليس عند الآخر، وفي بعض ما ذكروه اعتراض ومناقشة، لكن لا يسع هذا المختصر تفصيل ذلك». فتح الباري ١/٥٣٦.

وعلى سبيل المثال فطبقات ابن سعد على كبر حجمها لم يرد فيها ذكر الصفَّة سوى خمس مرات[1]، الأمر الذي يدل على عدم اهتمام كتاب السيرة بهذا الجانب، وعدم اهتمام أصحابه به، فقليل هم الصحابة الذين صرحوا بنزولهم في الصفَّة في يوم من الأيام.

وينبغي أن نذكر أن الأربعمائة الذين قيل بنزولهم في الصفَّة، لم يجتمعوا في وقت واحد، بل تواردوا عليها خلال قرابة تسعة أعوام التي هي فترة عمل الصفَّة. وإذا علمنا أن بعضهم لم يبت فيها إلَّا ليلة واحدة، تبين لنا أنه مرت أيام كانت الصفَّة فيها خالية أو شبه خالية، وإنما اشتد الضغط على النزول فيها في الآونة الأخيرة في العام السابع وما بعده، أو لنقل بعد صلح الحديبية حيث كثر داخلو الإسلام وكثر المهاجرون من مكة إلى المدينة بشكل خاص.

● ● ●

---

(١) انظر طبقات ابن سعد، المجلد الأخير، فهرس الأماكن، حرف الصاد.



الفَصل الخامِس

ضِيق العَيش في الصفَّة

الصفَّة وضيق العيش:

يحسن بنا أن نعطي صورة عامة عن العيش في الصفَّة، وعن الشدة التي عانى منها المسلمون في تلك المرحلة من حياة الدعوة.

أخرج البخاري وأحمد عن أبي هريرة أنه كان يقول: (الله الذي لا إلّه إلَّا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلَّا ليشبعني، فمرَّ ولم يفعل، ثم مرَّ بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلَّا ليشبعني، فمرَّ فلم يفعل، ثم مرَّ بي أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآني

وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: «يـا أبا هـر»
قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «الحقْ» ومضى، فتبعته،
فدخل فاستأذن فأذن لي، فدخل فوجد لبناً في قدح فقال:
«من أين هـذا اللبن؟» قـالـوا: أهـداه لـك فـلان، قـال:
«أبا هر» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «الحق إلى أهـل
الصفَّة فادعهم لي» قال: وأهل الصفَّـة أضياف الإسـلام،
لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقـة
بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل
إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك، فقلت:
ومـا هذا اللبن في أهـل الصفَّة؟ كنت أحق أن أصيب من
هذا اللبن شربة أتقوّى بهـا، فإذا جـاؤوا أمرني فكنت أنـا
أعـطيهم، ومـا عسى أن يبلغني من هـذا اللبن، ولم يكن
من طاعة الله وطـاعة رسـوله ﷺ بـدّ، فأتيتهم فـدعوتهم،
فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجـالسهم من البيت.
قال: «يا أبـا هر» قلت: لبيـك يا رسـول الله، قال: «خـذ
فأعطهم» فـأخذت القـدح فجعلت أعطيـه الرجـل فيشرب
حتى يروى، ثم يردّ عليَّ القدح، فأعطيه الرجل، فيشرب
حتى يـروى، ثم يـرد عليَّ القـدح. . حتى انتهيت إلى
النبي ﷺ وقـد روي القوم كلهم، فـأخذ القـدح فوضعـه

على يده، فنظر إليَّ فتبسم، فقال: «أبا هر» قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «بقيت أنا وأنت» قلت: صدقت يا رسول الله، قال: «اقعد فاشرب» فقعدت فشربت، فقال: «اشرب» فشربت، فما زال يقول: «اشرب» حتى قلت: لا، والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً، قال: «فأرني» فأعطيته القدح، فحمد الله وسمَّى وشرب الفضلة»[1].

وفي البخاري عن أبي هريرة قال: (رأيت سبعين من أصحاب الصفَّة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته)[2].

وعن فضالة بن عبيد: (أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قاماتهم في الصلاة من

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٤٥٢) وفي المسند ٢/٥١٥ واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٤٢).

الخصاصة، وهم أصحاب الصفَّة، حتى تقول الأعراب: هؤلاء مجانين)[1].

قال واثلة بن الأسقع: (رأيت ثلاثين رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون في الأزر أنا منهم)[2].

تلك نماذج تصف لنا تلك الحياة، ومع ذلك فما نعتقد أن جميع أيام الصفَّة كانت على وتيرة واحدة، بل كانت فيها أيام غير شديدة. وعادة: ما جاء غير مخالف لما تعارفه الناس من الحياة الوسط قلما يذكر، ولذلك لم تنقل لنا الحالة العادية..

وأيضاً، فإذا نقلنا صورة عن حياة أهل الصفَّة، فمن الوفاء في نقل الحقيقة أن ننقل صورة من الواقع العام خارج جدران الصفَّة.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد باب (٣٩) حديث (٢٤٧٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه أحمد في المسند ٦/١٨.

(٢) طبقات ابن سعد ١/٢٥٥.

الحياة العامة في المدينة :

إن هذه الصورة من شـدة العيش التي سجلتها كتب السنَّة عن أهل الصفَّـة، ليست لهم وحدهم، وإنمـا هناك واقـع عـام من الضيق أدّى بـدوره إلى التـأثيـر على أهـل الصفَّة، ونحن نذكر بعض النصوص التي تبين شدة الحياة في المدينة. .

عن عبـد الله بن عمـر أنـه قـال: (كنـا جلوسـاً مـع رسـول الله ﷺ، إذ جاءه رجـل من الأنصـار فسلم عليـه، فقال ﷺ: «يا أخـا الأنصار، كيف أخي سعـد بن عبادة؟» فقال: صالح، فقال ﷺ: «من يعـوده منكم؟» فقام وقمنـا معـه، ونحن بضعـة عشـر، مـا علينـا نعـال ولا خفــاف، ولا قــلانس ولا قمص، نمشي فـي تلك الـسبــاخ حـتى جئناه)[1].

وعن محمد بن المنكدر قـال: صلّى جابـر في إزار قد عقده من قبل قفاه، وثيـابه مـوضوعـة على المشجب، قال له قـائل: تصلي في إزار واحـد؟ فقال: إنمـا صنعت

---

(١) رواه مسلم برقم (٩٢٥).

ذلك ليراني أحمق مثلك، وأيُّنا كان له ثوبان على عهد النبي ﷺ؟[1].

وعن أبي هريرة قال: (خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوع يا رسول الله، قال: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما»)[2].

وعن أنس بن مالك قال: رأى أبو طلحة رسول الله ﷺ مضطجعاً في المسجد، يتقلب ظهراً لبطن، فأتى أم سليم فقال: إني رأيت رسول الله ﷺ.. وأظنه جائعاً. هل من شيء؟ فقالت: نعم، عندي كسر من خبز وتمرات، فإن جاءنا رسول الله ﷺ وحده أشبعناه، وإن جاء آخر معه قلَّ عنهم[3]..

وعن عائشة قالت: (ما شبع آل محمد منذ قدم

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٥٢).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٠٣٨).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٠٤٠).

المدينة من طعام بر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض)[1].

ولم تكن القضية قضية طعام وحسب. فقد كان هناك ضيق في اللباس، حتى وجدنا الرجل يلبس ثياب امرأته. قال حذيفة بن اليمان يصف نفسه حين ذهب في غزوة الخندق ليأتي بخبر أبي سفيان وجماعته: وما علي إلَّا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي[2] بل إن رسول الله ﷺ كان يومئذٍ في مرط لبعض نسائه[3].

وإذا ذهبنا نتحدث عن أوقات الشدة ونذكر النصوص المتعلقة بذلك لطال بنا المقام مثل وقت الحصار في الخندق، والاستعداد لتجهيز جيش العسرة.. وذلك مما هو معلوم للقارىء الكريم فلا نطيل الكلام فيه.

وإذن فتلك الشدة في العيش لم تكن قاصرة على أهل الصفَّة، وإنما هي الوضع العام السائد وإنما سقنا

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤٥٤).
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٤/١١٤. والمرط: الكساء.
(٣) سيرة ابن هشام ٢/٢٣٣.

هذه النصوص لبيانه حتى لا يحدث خلل في التصور حول هذه المسألة، فيظن أن أهل الصفَّة في تلك الشدة وبقية الناس في رخاء، وهم لا يشعرون بمن حولهم..

أسباب ضيق العيش:

قبل أن نتحدث عن هذه الأسباب لا بد من التنويه ببعض الملاحظات:

ـ لقد قدم الأنصار كل ما يستطيعون لإخوانهم المهاجرين، ولقد استمر عطاؤهم طيلة حياة النبي ﷺ حتى جاء الخير وعمَّ في أواخرها.. كما جاء ذلك في الحديث.. ولقد شهد الله سبحانه بكرمهم وإيثارهم..

ـ ولقد ساهم القادرون من المهاجرين.. من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف.. فبذلوا وقدموا الشيء الكثير مما هو مذكور في كتب السيرة..

ـ بل قد ساهم كل قادر حتى ولو كان الشيء الذي يقدمه شيئاً قليلاً، فكان النبي عندما يحض على الصدقة ـ كما يقول أبو مسعود ـ (ينطلق أحدنا إلى

السوق فيحامل فيصيب المد. .) ثم يأتي ليتبرع به[1].

وإذن فقد قدم كل قادر على العطاء ما يستطيع، ولم يكن الضيق ناتجاً عن تقصير أو كسل أو بخل، وإنما هي ظروف اقتضتها طبيعة هذه المرحلة من حركة الدعوة، ولعلنا نستطيع إيضاح بعض ذلك بما يلي:

أخرج محمد بن سعد، عن مخرمة بن سليمان الوالبي، أخبرني الأعرج عن أبي هريرة: (أن النبي ﷺ كان يجوع) قلت لأبي هريرة: وكيف ذلك الجوع؟ قال: (لكثرة من يغشاه، وأضيافه، وقوم يلزمونه لذلك، فلا يأكل طعاماً أبداً إلاَّ ومعه أصحابه، وأهل الحاجة يُتتبعون من المسجد، فلما فتح الله خيبر اتسع الناس بعض الاتساع، وفي الأمر بعد ضيق، والمعاش شديد، هي بلاد ظلف[2] لا زرع فيها، إنما طعام أهلها التمر وعلى ذلك أقاموا).

قال مخرمة: وكانت جفنة سعد تدور على

---

(١) متفق عليه (البخاري ٢٢٧٣، مسلم في كتاب الزكاة ٧٢).
(٢) كل ما اشتد من الأمر فهو ظلف.

رسول الله ﷺ منذ نزل المدينة في الهجرة إلى يوم توفي، وغير سعد بن عبادة من الأنصار يفعلون ذلك، فكان أصحاب رسول الله ﷺ كثيراً يتواسون، لكن الحقوق تكثر، القدام يكثرون، والبلاد ضيقة ليس فيها معاش، إنما تخرج ثمرتهم من ماء ثمر، يحمله الرجال على أكتافهم أو الإبل. . وربما أصاب نخلهم القشام[1] فيذهب ثمرتهم تلك السنة[2]. .

إن هذا النص ليصف وصفاً دقيقاً أسباب الشدة، وهو يؤكد ـ كما قلنا ـ عدم التقصير في البذل والعطاء، ولكن الأسباب للضيق كانت فوق طاقة الأشخاص، وقد أشار النص إلى الأسباب التالية:

الأول: أن المدينة بلد زراعي، وزراعته تقوم على النخيل بالدرجة الأولى، وأن المزارع تسقى بالماء الذي يحمله الرجال على أكتافهم أو تحمله الإبل، وهو أمر صعب، فليس هناك من أنهار تسقي المزارع كما في البلاد الزراعية الأخرى، وإذا أصاب القشام الثمرة فقد

(١) القشام: شيء يصيب البلح بمثل الجدري.
(٢) طبقات ابن سعد ١/ ٤٠٩.

ذهب موسم ذلك العام . .

والميدان الزراعي مجاله محدود والأيدي العاملة التي يستهلكها قليلة، خاصة وأن الزراعة الأولى هي النخيل والعمل فيها في مواسم محدودة.

الثاني: كثرة الوافدين والقادمين، مما ينشأ عنه كثرة الحقوق والالتزامات، مع ما أشرنا إليه من ضيق البلاد، إذ المدينة بلد صغير وقتئذٍ.

وكل قادم يحتاج إلى أمرين: تأمين السكن له ولأسرته، وتأمين مورد رزق له. . ولم يكن هذا بالأمر السهل.

ونضرب مثالاً عن كثرة القادمين وعدم قدرة المدينة على الاستيعاب قصة وفد مزينة. فقد كان أول من وفد على رسول الله ﷺ من مضر أربعمائة من مزينة، وذلك في رجب سنة خمس، فجعل لهم رسول الله ﷺ الهجرة في دارهم، وقال: «أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم»، فرجعوا إلى بلادهم[1].

---

(١) طبقات ابن سعد ١/٢٩١.

فقد ردهم رسول الله ﷺ إلى بلادهم أحوج ما يكون لهم من أجل الدفاع عن المدينة، وما ذاك إلَّا لأنه رأى عدم القدرة الاستيعابية للمدينة على تقبل تلك الأعداد الكبيرة دفعة واحدة للظروف الاقتصادية القائمة.

ونضيف أسباباً أخرى إلى ما ذكره النص:

الثالث: أنّ المهاجرين وغالبهم من قريش لا يتقنون غير التجارة عملاً، ولم يكن فيهم من يحسن الصنعات المختلفة وذلك لاحتقار العربي يومئذٍ للصنعة، وأنه يرى فيها عمل الأرقاء والعبيد.

وهذا الأمر يجعل من القادمين عاطلين عن العمل لفترة من الزمن ــ على الأقل ــ ريثما يتعرفون أوضاع البلد.. ومع ذلك.. فليست المدينة ذلك البلد الكبير الذي يستوعب ذلك العدد الكبير من التجار.

الرابع: عاشت المدينة أكثر أيامه ﷺ في حالة حرب، والحرب تنهك الاقتصاد وتذهب بالثروات، وفي كثير من الأحيان كان يتوفر وجود المقاتلين، ولا يوجد المال الذي يجهزهم ليوصلهم إلى أرض المعركة ــ ومن أراد الأمثلة فليرجع إلى غزوة تبوك ــ وهذا مقياس يبين

مدى ما تستهلكه الحرب من الاقتصاد.

الخامس: كان للمدينة مع مكة حركة تجارية قبل الهجرة، وبعد الهجرة توقفت هذه الحركة مما أثر بدوره على النشاط الاقتصادي.

إن تلك الأسباب مجتمعة تعجز دول كبرى ذات إمكانات عن تجاوزها، ومع ذلك فقد تجاوزها المسلمون بعامل التربية التي رباهم عليها رسول الله ﷺ والتي اعتمدت على الصبر والإيثار والعمل الخالص لله تعالى.

وإذا عرفنا أسباب ضيق العيش بشكل عام عرفنا أن الصفَّة ـ يومئذٍ ـ ليست أكثر من بيت من هذه البيوت المنتشرة في المدينة، والتي قد ينهي الكثير من سكانها يومهم على أكل كسرة من الخبز. ألم تنظر إلى الخبر السابق عن أبي طلحة عندما رجع يسأل أم سليم ـ زوجته ـ عما عندها من طعام لأنه يريد أن يدعو النبي ﷺ فقالت: عندي كسر من خبز وتمرات، فإن جاءنا رسول الله ﷺ وحده أشبعناه، وإن جاء آخر معه قلَّ عنهم..؟! هذا كل ما يمتلكه بيت أبي طلحة الصحابي الأنصاري..

وإذن فلم يكن عيش أهـل الصفَّة إلاَّ صـورة لذلـك الواقع العام.

• • •

الفَصْل السَادِسْ

عَـمَل أهـل الصفَّـة

وصـف الواقـع :

لا نستطيع أن نقول: ما عمـل أهل الصفَّـة؟ بمعنى السؤال عن مهنتهم أو صنعتهم أو العمل الذي يكـون سبباً لمـورد رزقهم، لأن الصفَّة كـانت مكان إقـامة مؤقتـة كمـا سبق تقرير ذلك، فإذا وجد الواحـد منهم عملاً، أو مـأوى خارجها. . غادرها ولم يستمر في المكوث فيها، وبالتـالي لم يعد من أهل الصفَّة.

مثلهم في ذلك مثل إنسـان قدم بلداً فنـزل في نزل (فندق) فيها ريثما هيأ لنفسـه بيتاً مستـأجراً. . فـلا يوصف بعد خروجه من النزل بأنه من أهله، إلاَّ على الحكاية لما كان، وهكذا فالخارج من الصفَّة لم يعد من أهلها.

وقد مر بنا قول أبـي نعيم وكذا قول ابن تيميـة: بأن

من تأهل أو سافر، أو انتقل منها أو استغنى . . لم يعد له حكم أهل الصفَّة أو اسمهم.

إذن لا نستطيع أن نقول: ما عمل أهل الصفَّة؟ وإنما يحسن بنا أن نطرح السؤال بشكل آخر فنقول:

كيف كانوا يقضون وقتهم؟

وفي الإجابة عليه نقول:

إن الغالبية العظمى للذين ينزلون الصفَّة، هي من المهاجرين الجدد، الذين يصلون إلى المدينة، وبعضهم ربما كان جديداً على الإسلام، فيكون بحاجة إلى تعلم القرآن وأحكام الشرع، ولذا كان جلّ وقتهم بين تدارس للقرآن، أو تعلم له، يقوم بذلك الرسول ﷺ أو من يوكل إليه ذلك، كما كان ﷺ يجلس إليهم ويذكرهم ويعظهم ويرفع من همتهم، كل ذلك قد وردت به النصوص.

عن عمرو بن أوس، أخبر أن أباه أوساً أخبره قال: إنّا لقعود عند رسول الله ﷺ في الصفَّة وهو يقص علينا ويذكرنا(١) . .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ٨.

وعن عقبة بن عامر الجهني قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً، ونحن في الصفَّة، فقال: «أيكم يحب أن يغدو إلى بطحان[1]، أو إلى العقيق[2]، فيأتي منه بناقتين كوْماوَيْن[3] في غير إثم ولا قطع رحم؟» فقلنا: يا رسول الله، نحب ذلك، قال: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»[4].

وعن عبادة بن الصامت قال: علمت ناساً من أهل الصفَّة الكتابة والقرآن[5]..

وهكذا كانوا يقضون وقتهم بين تعلم القرآن، وسماع أحاديثه ﷺ وبين تعليم القادم حديثاً، الجاهل لأحكام الإسلام، فإذا حضرت سرية أو غزوة خرجوا

---

(١) اسم موضع قرب المدينة.
(٢) اسم وادٍ بالمدينة.
(٣) الكوماء من الإبل: العظيمة السنام.
(٤) رواه أحمد في المسند ٤/١٥٤ ومسلم برقم (٨٠٣).
(٥) أخرجه أحمد في المسند ٥/٣١٥.

فيها، أو خرج القادر منهم إلى الجهاد..

قال الإمام الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى:

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ... ﴾[1].

نزلت في فقراء المهاجرين، وهم أصحاب الصفَّة.. وكانوا ملازمين المسجد ويتعلمون القرآن، ويخرجون في كل غزوة.

ولما كان مكوث أهل الصفَّة فيها مكوثاً اضطرارياً، وكان جلُّ الإنفاق عليهم من باب الصدقات، فإنه لا يسمح لأحدهم أن يدخر مالاً ولو قليلاً، بل عليه أن ينفقه على نفسه وعلى إخوانه، أو أن يغادر الصفَّة، إن كان هذا المال كافياً للاستغناء عن الإقامة في الصفَّة، ومن خلال هذا المنطلق نستطيع فهم النصين التاليين:

عن علي رضي الله عنه قال: مات رجل من أهل الصفَّة، وترك دينارين، أو درهمين. فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٧٣.

«كيتان، صلوا على صاحبكم»[1].

وعن أبي أمامة: أن رجلاً من أهل الصفَّة توفي وترك ديناراً، فقال رسول الله ﷺ: «له كية»، ثم توفي آخر فترك دينارين فقال ﷺ: «كيتان»[2].

وأظن بعد هذا العرض أصبح شأن أهل الصفَّة واضحاً، بحيث لم يعد هناك مجال لسائل أن يسأل فيقول: لماذا لا يعملون؟ أو: لماذا لا يأمرهم النبي ﷺ بالعمل، كما أمر ذلك السائل بالاحتطاب؟

ذلك أنه ﷺ لا يمكن أن يأمرهم بالعمل وهو لا يجده لهم. والذين يتساءلون كيف لا يوجد العمل.. عليهم أن يقرأوا إحصائيات العاطلين عن العمل في الدول الكبرى ذات الإمكانات الهائلة. وعندها يتعلمون أن ظروفاً معينة قد تكون أكبر من قدرة المدبرين والمخططين.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/١٠١.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/٢٥٢.

المهمة الرئيسة:

إذا أردنا أن نعرف المهمة الرئيسة لأهل الصفَّة، ينبغي أن نبحث عن الدافع وراء هجرتهم بعد استقراره ﷺ في المدينة..

فقد بقي بعض المسلمين في مكة مخفين إسلامهم، فلما كانت غزوة بدر اضطروا أن يخرجوا مع المشركين فقتلوا. فأنزل الله تعالى إثر غزوة بدر:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾[1].

قال ابن كثير في تفسيرها: قال ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم،

(١) سورة النساء: الآيتان ٩٧ ـ ٩٨.

فأصيب بعضهم، قال المسلمون: كان أصحابنا مسلمين، فأكرهوا، فاستغفروا لهم فنزلت: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ الآية، قال: فكتب إلى من بقي من المسلمين بهذه الآية لا عذر لهم[1].

وبهذا أصبحت الهجرة واجباً وفرضاً.

وقد أكدت آية الأنفال هذا الوجوب إذ قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ . . .﴾[2].

قال القاضي عياض: واتفق الجميع على أن الهجرة قبل الفتح كانت واجبة عليهم، وأن سكنى المدينة كان واجباً لنصرة النبي ﷺ ومواساته بالنفس[3]. .

---

(١) انظر تفصيل القول في هذه الحادثة في كتاب (من معين السيرة) للمؤلف ص ٢١٧.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٧٢.

(٣) انظر تفصيل هذا الموضوع في كتاب (السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة) للمؤلف.

نعم هـذه هي الحكمة من إيجـاب الهجرة، وذلـك لتكثير عدد المسلمين في المـدينة، ولنصـرة الرسـول ﷺ ودعوته . .

هـذه هي المهمة الأولى لجميـع المهاجـرين، إنها نصرة الدعوة، وأهل الصفَّـة هم بعض المهاجـرين، وإذن فعملهم الأول هـو نصـرة الـدعـوة والانضـواء تحت رايـة الجهاد عندما يعلن ذلك. وقد كانوا كذلك.

● ● ●

الفَصلُ السَّابع
النهَايَة والخُلاصَة

نهاية دور الصفَّة:

ليس هناك نص ـ فيما أعلم ـ يحدد التاريخ الذي انتهى فيه دور الصفَّة، كمرفق اقتصادي يقوم باستضافة المهاجرين عند وصولهم إلى المدينة، تلك المدة القصيرة. اللَّهم سوى ما جاء عند ابن سعد من قوله: (حتى جاء الله بالغنى)[1]، وهذا القول وما شابهه لا يحدد وقتاً معيناً، ولكن يمكن الاستفادة منه كمؤشرٍ على الوقت.

(١) روى ابن سعد بسنده فقال: كان أهل الصفَّة ناساً من أصحاب رسول الله لا منازل لهم، فكانوا ينامون على عهد رسول الله ﷺ في المسجد ويظلون فيه ما لهم مأوى غيره.. حتى جاء الله تعالى بالغنى.. [الطبقات ١/٢٥٥].

وكان يغلب على ظني أن دورها انتهى بفتح مكة، وذلك لأن المصدر الوحيد الذي كان يمد الصفَّة بروادها هو الهجرة، وقد أنهى فتح مكة الهجرة، إذ قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»[1]. ولكني وجدت بعد ذلك نصاً يدل على استمرارها بعد الفتح.

فقد أخرج ابن عساكر (١/١٠٥) عن ابن عباس قال: جئت رسول الله ﷺ بعد خروجه من الطائف بستة أشهر، ثم أمره الله بغزوة تبوك، وهي التي ذكر الله في ساعة العسرة، وذلك في حرّ شديد، وقد كثر النفاق، وكثر أصحاب الصفَّة[2]..

ويغلب على الظن أن كثرة أصحاب الصفَّة في هذا الوقت لم يكن بسبب العامل الأول الذي هو الهجرة. وإنما كان نتيجة لتجمع القبائل حول المدينة استعداداً للانطلاق إلى تبوك، وهذا هو المرجح، فقد كانت الصفَّة مركز تجمع لغير القادرين على تجهيز أنفسهم للخروج

(١) متفق عليه: رقم البخاري (٣٠٧٨ ــ ٣٠٨٠)؛ رقم مسلم (١٨٦٤).
(٢) حياة الصحابة، للكاندهلوي ١/٤١٧.

إلى تبـوك، فكان تجمعهم في الصفَّـة يسهل مهمـة الذين يريدون الجهاد بأموالهم، فيأتون إلى الصفَّة فيجهزون من يريدون خـروجه، كمـا أنها تسهـل مهمة الـرسول ﷺ في معرفة من عنده من الناس الذين يحتاجون إلى تجهيز، وإلاَّ لم يطلب المال والتبرعات ــ يومئذٍ ــ مرات متعددة؟

ولقد اعتاد الصحابة فيما مضى عندما تحضر سـرية أو غزوة، أن يمر الصحـابـي القادر على حمـل غيره معـه على الصفَّة فيحمل معه من يريد.

وكـأني بـالصفَّـة وكـأنهـا مـركـز تجمع لإعـداد المجـاهدين، وإلاَّ فمن أين يكثـر روّاد الصفَّة وقـد انقطع المورد الرئيسي لها وهو الهجرة؟

ومهمـا يكن من أمـر، فقـد استمـرت الصفَّـة بعـد الفتح، حتى جاء الله بالغنى كما قال ابن سعد.

وربما كان الغنى هـو المال الـذي ورد إلى المدينـة من جزية البحرين، فقد كان مالاً عظيماً.

أخـرج البيهقي عن أنس بن مـالـك قـال: (أُتي رسـول الله ﷺ بمـال من البحـرين، فقـال: «انثـروه في مسجدي»، قال: وكـان أكثر مـال أتي به رسـول الله ﷺ،

فخرج إلى الصلاة، ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة، جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلاَّ أعطاه، إذ جاءه العباس، فقال: يا رسول الله أعطني، فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلاً، فقال له رسول الله ﷺ: «خذ» فحثا في ثوبه، ثم ذهب يقلّه فلم يستطع، فقال: مرْ بعضهم يرفعه إليّ، قال: «لا»، قال: فارفعه أنت عليَّ، قال: «لا»، فنثر منه ثم احتمله على كاهله ثم انطلق.. فما قام رسول الله ﷺ وثَمَّ منها درهم)[1].

وهكذا وزع ﷺ هذا المال بكامله، ولم نجد لأهل الصفَّة ذكراً في توزيعه، مما يدل على أن الصفَّة كانت خالية يومئذ. وقد كان وصول هذا المال قبل حجة الوداع بقليل.

وقد رأينا من قبل كيف ضنَّ رسول الله ﷺ على ابنته فاطمة، وهي أحب الناس إليه، أن يعطيها خادماً من

---

(١) ذكره ابن كثير عند تفسير الآية (٧٠) من سورة الأنفال، وقال: وقد رواه البخاري في مواضع من صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم.

أقول: وانظر زاد المعاد ٦٩٢/٣ بشأن هذه الجزية.

السبي وقال يومها: «والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفَّة تطوي بطونهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم..»، واليوم يعطي كل من رآه وبغير حساب كما هو واضح من قصة العباس رضي الله عنه. فما نعتقد أنه فعل هذا إلَّا بعد أن خلت الصفَّة من ساكنيها وقد انتهى دورها، فلم يقطنها أحد بعد ذلك.

* * *

نعم، خلت الصفَّة، وانتهى دورها كمرفق اقتصادي أدى دوره الكبير، ولكنها ظلت جزءاً من المسجد النبوي الشريف، كما كانت قبل أن يطلق عليها هذا الاسم.

ويخطىء من يظن أن الصفَّة استمرت بعملها بعد عهد الرسول ﷺ، فإنّا لا نجد لها ذكراً ــ بهذا المعنى ــ أبداً، وإنما يرد ذكرها كجانب من المسجد النبوي الشريف.

وهذا ما أوهم بعضهم، فظن استمرار ذكر الاسم يعني استمرار العمل.

ومن هذا القبيل ما وقع لصاحب الحلية رحمه الله، فقد جاء في آخر حديثه عن أهل الصفَّة قوله:

«وكان يزور أهلَ الصفَّة بعد النبي ﷺ الأكابرُ من الأقارب والأشراف، يتبركون بما خصوا به من الألطاف، وعصموا به من الإسراف والإتراف».

ثم برهن على قوله باستشهاده بالحادثة التالية، قال:

«دعا عمر بن الخطاب علي بن أبي طالب فسارَّه، ثم قام علي، فجاء الصفَّة فوجد عقيلاً والحسين، فشاورهم في تزويج أم كلثوم من عمر، ثم قال علي: أخبرني عمر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلَّا سببي ونسبي»[1].

وليس في هذا الخبر ـ كما هو واضح ـ إلَّا أن علياً فتش عن عقيل والحسين فوجدهما جالسين في الصفَّة، وما زال الناس من يومها حتى الآن يتخذون الصفَّة مكاناً لجلوسهم عند فراغهم، وليس فيه ما يدل أن الصفَّة ـ يومئذٍ ـ فيها أناس كما كانت في عهده ﷺ.

نخلص من هذا كله إلى قناعة كاملة بأن دور الصفَّة قد انتهى في حياته ﷺ قبل حجة الوداع.

---

(١) حلية الأولياء ٢/٣٤.

خلاصة القول في الصفَّة:

يحسن بنا في نهاية هذا الباب أن نلخص تصورنا عن الصفَّة وأهلها في كلمات يسيرة تجمع ما سبق:

١ ــ الصفَّة هي المسجد النبوي الأول الذي بني يوم كانت القبلة باتجاه بيت المقدس، ولم يبنَ ليكون صفَّة كما حدث فيما بعد، ولكنه استفيد منه لذلك بعد تغير اتجاه القبلة.

٢ ــ الصفَّة إجراء اقتصادي بحت ساعد على تجاوز الأزمات الاقتصادية أثناء حياته ﷺ، ولم يستمر بعد ذلك.

٣ ــ النازلون فيها هم من المهاجرين فقط فلم ينزلها أنصاري.

٤ ــ والنازلون فيها هم من العزاب الذين ليس لهم أهل.

٥ ــ والنازلون فيها إنما نزلوا بعامل الضرورة، والذين وجدوا لأنفسهم مخرجاً آخر لم ينزلوا فيها.

٦ ــ ليس للنازلين فيها ميزة تميزهم عن غيرهم من

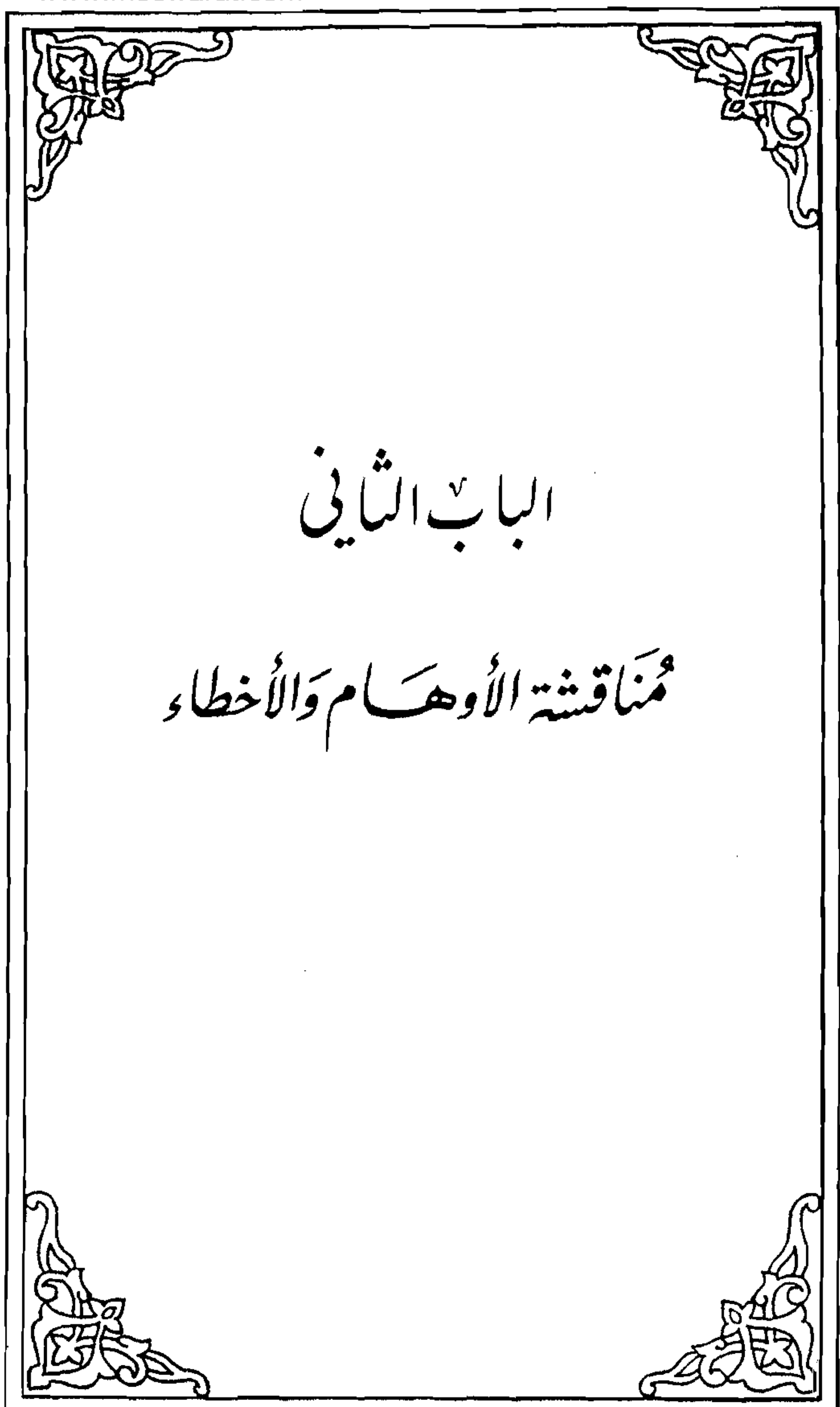
الصحابة، بل لم يكونوا هم من المسلمين الأوائل، وليس فيهم أحد من العشرة المبشرين بالجنة.

٧ ــ ليس للنزول فيها أي فضل، فليست هي مشهداً من المشاهد، أو عملاً متميزاً، (بل كان فيمن نزل فيها من ارتد عن الإسلام وقتله ﷺ كالعرنيين كما في الصحيح)[١]. كما قال ابن تيمية رحمه الله.

● ● ●

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية ص ١٢.



الباب الثاني

مُناقشة الأوهام والأخطاء

ظل التصور الكلي عن أهل الصفَّة بعيداً عن الأذهان وظلت صورتهم ترى من جانب واحد.

فهذا يراهم من خلال فقرهم وجوعهم..

وهذا يراهم من خلال زهدهم وتقشفهم.

وهذا يراهم من خلال انقطاعهم عن الدنيا.

وهذا يراهم من خلال ذكرهم وتدارسهم للقرآن.

وهذا...

ولكن أحداً لم يحاول أن يبحث عن سبب قصتهم، فيدرس الظاهرة بجميع أبعادها ليصل من خلال ذلك إلى تصور صحيح كما فعلنا في الباب السابق.

وهذه الرؤية الجانبية القاصرة، قد أدت إلى أوهام وأخطاء وافتراءات، بل وإلى فقه غريب بعيد عن روح العلم.. وكان لذلك أثره في انحراف المفاهيم.. بل قد استغل بعضهم هذا الغبش وعدم الوضوح في الرؤية

لينسب إليهم ما لا يقول به عاقـل.. فضلاً عن مسلم بـل عن صحابـي.

وإني في هذا الباب سوف أسوق بعض هذه الأوهام والافتراءات والأخطاء.. ثم أبـدأ بمناقشتهـا مستعيناً بـالله سبحانه وتعالى.

* * *

الفَصل الأول
بَيان الأوهَام وَالأخطاء

نذكر في هذا الفصل بعض النصوص التي تبيِّن لنا المفهوم المتداول عن الصفَّة وعن أهلها:

١ ــ السؤال الموجه إلى ابن تيمية:

(سئل شيخ الإسلام، وقدوة الأنام، ومفتي الفرق، وناصر السنَّة، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية ــ رضي الله عنه ــ عن «أهل الصفَّة»:

ــ كم كانوا؟

ــ وهل كانوا بمكة أو بالمدينة؟

ــ وأين موضعهم الذي كانوا يقيمون فيه؟

ــ وهل كانوا مقيمين بأجمعهم لا يخرجون إلَّا خروج حاجة؟ أو كان منهم من يقعد بالصفَّة، ومنهم من يتسبب في القوت؟

- وما كان تسببهم، هل يعملون بأبدانهم، أم يشحذون بالزنبيل؟

- وفي من يعتقد أن «أهل الصفَّة» قاتلوا المؤمنين مع المشركين؟

- وفي من يعتقد أن «أهل الصفَّة» أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم؟ ومن الستة الباقين من العشرة؟ ومن جميع الصحابة؟

- وهل كان فيهم أحد من العشرة؟

- وهل كان في ذلك الزمان أحد ينذر لأهل الصفَّة؟

- وهل تواجدوا على دف أو شبابة؟ أو كان لهم حاد ينشد الأشعار، ويتحركون عليها بالتصدية ويتواجدون.

- وعن هذه الآية، وهي قوله تعالى:

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾[1].

---

(1) سورة الكهف: الآية ٢٨.

هل هي مخصوصة بأهل الصفَّة؟ أم هي عامة..)[1].

(وسئل عن قوم يقولون: إن النبي ﷺ جاء إلى باب أهل الصفَّة فاستأذن، فقالوا: من أنت؟ قال: أنا محمد، قالوا: ما له عندنا موضع الذي يقول: أنا، فرجع ثم استأذن ثانية وقال: أنا محمد مسكين، فأذنوا له..)[2].

وينقل ابن تيمية ضمن جوابه بعض الافتراءات ومنها:

(ومثل هذا ما يرويه بعض هؤلاء المفترين: أن أهل الصفَّة سمعوا ما خاطب الله به رسوله ليلة المعراج، وأن الله أمره أن لا يعلم به أحداً، فلما أصبح وجدهم يتحدثون، فأنكر ذلك، فقال الله تعالى: أنا أمرتك أن لا تعلم به أحداً، لكن أنا الذي أعلمتهم به)[3].

(ويتحدثون عن أصحاب الصفَّة بأحاديث كثيرة:

---

(١) الفتاوى ١١/٣٧.

(٢) الفتاوى ١١/٧١.

(٣) الفتاوى ١١/٥٤.

منهـا أنهم يقولـون: إن رسـول الله ﷺ وجـدهم على الإسلام من قبل أن يبعث فوجدهم على الطريق..)[1].

فهذه الأسئلة تبين لنا ما كان قائماً في الـواقع لـدى بعض الـطوائف عن أهـل الصفَّـة، ممـا ينمّ عن الجهـل المطبق لدى من يرون ذلك.

٢ ـ من كتاب «التراتيب الإدارية»:

ـ قـال مؤلف الكتاب: «أهـل الصفَّة الـذين كانـوا في زمنـه عليه السـلام، قصروا أنفسهم على الـطاعـات، ولا يـرجعون إلى أهـل أو مال، فهم كمـا قيل ضيـوف الله والإسلام، يسكنون فيها ليرتزقوا من أوقافها».

ـ قـال التقي المقـريـزي في الخـطط: «ولاتخـاذ الربط والزوايا أصل من السنَّـة، وهو أن النبـي ﷺ اتخـذ لفقراء الصحابة الذين لا يأوون إلى أهل ولا مال مكاناً من مسجده كانوا يقيمون فيه عرفوا بأهل الصفَّة».

ـ وقـال الأستـاذ الصـالـح أبـو عثمـان سعيـد بن

---

(١) الفتاوى ١١/٧٢.

أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن ليون التجيبي في رسالته (الإنالة العلمية): «إن الفقراء المتجردين من الصوفية هم الذين ورثوا أهل الصفَّة في الجلوس في المساجد والرباط والتجرد، وقلة التسبب، والناس ينكرون على الفقراء هذه الصفة، وهي السنة، لأن السنة في عرف الشرع ما أقره عليه السلام أو عمله أو علمه، وكان عليه السلام يحسن إليهم ويؤنسهم، ولم يأمرهم بتكسب».

ـ وقال ابن ليون التجيبي في محل آخر من رسالته: «وفي الصحيح أن أهل الصفَّة لم يتسببوا ولا اشتغلوا بغير الذكر والفكر والقعود في المسجد، وكان القراء يخدمونهم، والنبي ﷺ وأصحابه يطعمونهم وقال: «أبشروا يا أهل الصفَّة» فترك التسبب طريقة أقرها النبي ﷺ، ولم يصح أنه أمرهم بالتسبب، وإنما أمرهم بالتوكل»[1].

٣ ـ حلية الأولياء:

قال أبو نعيم عند بدء ترجمته لأهل الصفَّة: «وهم

---

(١) نظام الحكومة النبوية المسمى «التراتيب الإدارية» للكتاني ١/ ٤٧٣ ـ ٤٧٨.

قـوم أخلاهم الحق من الـركون إلى شيء من العـروض، وعصمهم من الافتتـان بهـا عن الفـروض، وجعلهم قـدوة للمتجـردين من الفقـراء . . لا يـأوون إلى أهـل ولا مـال، ولا يلهيهم عن ذكـر الله تجارة ولا حـال، لم يحزنـوا على ما فاتهم من الـدنيا، هم الـرجال لا تلهيهم تجـارة ولا بيع عن ذكر الله، ولم يأسـوا على ما فـاتهم، ولم يفرحـوا بما آتاهم . . »[1].

٤ ــ عـوارف المعـارف:

ذهب صاحب العوارف ــ كما فعل كثيـرون غيره ــ إلى بيان المشابهة بين أصحاب الرباط وبين أهل الصفَّة. ومما قالـه: «. . فأهـل الصفَّـة رفضـوا الـدنيـا، وكـانـوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضـرع فزالت الأحقـاد والغل من بـواطنهم، وهكذا أهـل الـربط متقـابلون بـظواهـرهم وبواطنهم . . »[2].

---

(١) حلية الأولياء ١/٢٣٨.

(٢) عـوارف المعارف، لعبـد القـاهـر السهـروردي (ت ٥٦٣)، مطبوع في ملحق الإحياء ص ٨٢، الباب الـرابع عشـر: في مشابهة أهل الرباط بأهل الصفَّة.

٥ ـ كتاب «الفرقان»:

ونقل ابن تيمية بعض المفاهيم المنحرفة عن أهل الصفَّة ومنها:

«وقد يقول بعض هؤلاء ـ الذين يقولون إن الرسول ﷺ مرسل إلى عامة الخلق، وإن لله أولياء خاصة لم يرسل إليهم ولا يحتاجون إليه، بل لهم طريق إلى الله من غير جهته، كما كان الخضر مع موسى ـ إن أهل الصفَّة كانوا مستغنين عنه ولم يرسل إليهم».

«ومنهم من يقول: إن الله أوحى إلى أهل الصفَّة في الباطن ما أوحى إليه ليلة المعراج، فصار أهل الصفَّة بمنزلته»[1].

• • •

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ١٢.



الفصل الثاني

دراسة الأوهام والأخطاء

ونحن إذا ذهبنا نتعرف الأسباب التي أدت إلى هذه الأوهام والأخطاء، وجدناها ترجع إلى ثلاثة أسباب:

ـ بعضها سببه الجهل المحض والبعد الكامل عن سيرة الرسول ﷺ.

ـ وبعضها يرجع إلى الغلو في تعظيم أهل الصفَّة باعتبارهم ـ على زعمه ـ أصل لمذهب التصوف.

ـ وبعضها يرجع إلى اجتهاد لم يحسن صاحبه استخدام أولياته.

النوع الأول:

أكثر الذين انتسبوا إلى مذهب التصوف بعيدون كل البعد عن العلم، وهذا ما أدى بهم إلى جهل أوليات يعلمها المبتدئون بالعلم، من ذلك:

عدم معرفتهم أن الصفَّة كانت في مسجد المدينة، وأنها استعملت لاستقبال المهاجرين بعد تحول القبلة.

وأن الشحادة يحرمها الإسلام إلَّا عن ضرورة.

وأن المعراج كان بمكة.

وأن الصفَّة ظلة كانت المسجد الأول قبل تحول القبلة، وأنه لا باب لها.

وأن قوله تعالى:

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[1].

وكذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2].

من الآيات المكية. والصفَّة إنما كانت بالمدينة.

---

(١) سورة الكهف: الآية ٢٨.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٥٢.

فهذا النوع لا يحتاج أن نقف عليه.

النـوع الثانـي:

مـا كان سببـه الغلو، فهـو أيضـاً نـاشىء عن جهـل أو انحــراف، وهـو في بعض الأحيــان يؤدي إلى الكفـر ـ والعيـاذ بالله ـ لأنـه معارض لأصـول الاعتقـاد، أو نفي لبعض ما جاء في القرآن الكريم، ومن ذلك:

أن أهل الصفَّة قاتلوا المؤمنين مع المشركين؟!

وأنه ﷺ استأذن عليهم فلم يأذنوا له؟!

وأنهم سمعــوا مـا خــاطب الله بــه رســولــه ليلة المعراج..!!

وأنهم كانوا على الإسلام قبل أن يبعث ﷺ!!

وأنهم كانوا مستغنين عنه ﷺ وأنه لم يرسل إليهم!!

وأنه سبحانه أوحى إليهم في الباطن..!!

وهـذا النـوع كله أوهـام من نسـج الخيــال الضـال المنحرف.. ولن نناقشهـا أيضاً[1] لأن من بـه أدنى مسكة

---

(١) نـاقش الإمـام ابن تيميـة ـ رحمـه الله ـ ذلــك في الفتـاوى =

من عقل يرفض هذا كله.

النـوع الثالـث:

وهـو ما يـرجع إلى شبهـة اجتهـاد، وقـد أدّى هـذا الاجتهاد إلى تقرير النتائج والأحكام الآتية:

١ ــ أنـه ﷺ بنى الصفَّة قـاصـداً لهؤلاء الفقـراء، وبناء على ذلك فإن بناء الزوايا مشروع له أصـل في السنَّة من فعله ﷺ.

٢ ــ أن أهـل الصفَّـة أنـاس تجـردوا عن الـدنيـا، وقصـروا أنفسهم على الطاعـات وأقرهم ﷺ. وبنـاء على ذلك ففعل هؤلاء الذين يجلسون في الزوايا. . مشروع.

٣ ــ أن أهــل الصفَّـة لم يتسببــوا واعتمـدوا على الصدقات. وأقرهم ﷺ على ذلك.

٤ ــ أنـه ﷺ لم يأمـرهم بـالتسبب، وأقـرهم على تركه.

= ١١/٣٧ ــ ٨١، وكــذلـك في كتــابــه الفــرقــان ص ١٢ وما بعدها، فليرجع إليها من رغب بذلك، وما جاء في الباب الأول من هذا البحث فيه الكفاية.

٥ ــ أنهم هم الصفــوة الــذين لم تلههم تــجــارة ولا بيـع عن ذكـر الله سبحـانـه وتعـالى. بـدليــل إكـرام الرسول ﷺ لهم وسعي بقية الصحابة في خدمتهم.

وإذا أمعنـا النظر في هـذه الأحكام والاستنتـاجات، رأينـا أنها تـرجع في معـظمها إلى الـوهم والـوقـوف عنـد ظــواهـر الأشيــاء، دون السعي للوقـوف على البــواعث والأسباب ولذا فهي تستند إلى الافتراضات الآتية:

١ ــ قصده ﷺ لبناء الصفَّة لهذه الغاية.

٢ ــ أن الـذين أقـامـوا في الصفَّـة كـانت إقـامتهم دائمة فيها.

٣ ــ أن أهــل الصفَّـة جــاؤوا إليهــا قــاصــدين باختيارهم.

٤ ــ أن مجيئهم كــان بقصـد البعــد عن الـدنيــا والتجرد للعبادة.

٥ ــ وأن هذه الصورة من الحياة هي غاية ما يـدعو إليه الإسلام.

والعجيب أن فقهــاء القــرون الثــلاثــة المفـضلة

لم يتفطنوا لهذا الفقه!! وإنما جاء ذلك فيما بعد، ولم يأتِ بحثاً علمياً، وإنما جاء نتيجة بحث عن أدلة للدفاع عن الزوايا التي أنشئت ورفضها المصلحون من علماء الإسلام.

ونحن نناقش هذه الافتراضات، ونبيِّن الوهم فيها، وإن كان قد سبق في الباب الأول ما يفي بالغرض، ولكن استكمالاً للبحث وزيادة في الإيضاح.

● ● ●

الفَصل الثالث
مُناقشَة الأخطاء

بنـاء الصفَّـة:

وهمَ كثير ممن تحدثـوا عن الصفَّة، فـظنوا أنـه ﷺ بناها خصيصاً لهذا الغرض[1]. والأمر ليس كذلك، فليس هنـاك أي دليل أو شبهـة دليل أنـه ﷺ فعل ذلـك، وإنمـا الأمر ــ كما بيّنا في الباب الأول ــ أن المسجد الأول بعد تحـول القبلة استعمل نـزلاً لهؤلاء الفقراء بشكـل مؤقت. وأبقي على شكله الذي كان عليـه، وهو عبـارة عن ظلة،

---

(١) وممن وهم في ذلك الإمام ابن الجوزي حيث قال في كتـابه «تلبيس إبليس»: (. . فإن أهل الصفَّـة كانـوا فقراء يقـدمون على رسـول الله وما لهم أهـل ولا مـال فبنيت لهم صفَّـة في مسجـد رسول الله ﷺ وقيـل أهـل الصفَّـة) ص ٢٣٣، طبـع ونشر مكتبة المدني ــ جدة.

لا باب لها، ولو بني خصيصاً ما كنا نظن أن ينسى إيجاد باب له، واستكمال بناء الجدار الرابع، فالنبي ﷺ عندما بنى غرفتيه مع بناء المسجد جعل لهما بابين.

وإطلاق اسم الصفَّة إنما كان من هذا المنطلق، وهو شكل المسجد النبوي قديماً[1] ثلاثة جدران والرابع مفتوح لا جدار فيه.

ويؤكد هذا أنه استمر إطلاق اسم المسجد عليها، فعن أبي ذر (كنت من أهل الصفَّة، وكنا إذا أمسينا حضرنا باب رسول الله ﷺ، فيأمر كل رجل فينصرف برجل، فيبقى من أهل الصفَّة عشرة أو أقل، فيؤثرنا النبي ﷺ بعشائه، فنتعشى، فإذا فرغنا قال ﷺ: «ناموا في المسجد»)[2].

وفي حديث طخفة بن قيس الغفاري ـ عند أحمد ـ : أن من تبقى من أهل الصفَّة بعد توزيع بعضهم

(١) انظر تفصيل بناء المسجد النبوي في كتاب (الفن الإسلامي التزام وإبداع)، للمؤلف، طبع دار القلم.
(٢) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص ٢٣٣.

ذهبوا مع الرسول ﷺ إلى بيت عائشة. . . ثم قال لهم: «إن شئتم بتم وإن شئتم انطلقتم إلى المسجد» فانطلقوا إلى المسجد[1].

وعن أبي هريرة قال: (كنت من أهل الصفَّة، وكنا إذا أمسينا حضرنا رسول الله ﷺ فيأمر كل رجل فينصرف برجلين أو أكثر فيبقى من بقي عشرة أو أكثر أو أقل فيؤتى النبي ﷺ بعشائه فيتعشى معهم فإذا فرغنا قال: «ناموا في المسجد»)[2].

فكل هذه الأحاديث التي يقول فيها ﷺ: «ناموا في المسجد» فإنما المقصود الصفَّة والتي كانت مسجداً وما زالت جزءاً من المسجد.

ومن هذا يتبين أن القضية كانت في مفهومها قضية مؤقتة، وأنه استفيد من القسم الخلفي من المسجد لحل هذه الأزمة العارضة. ولذلك لم تستمر بعد انتهاء الغرض منها وعادت جزءاً من المسجد كما كانت والضرورات تقدر بقدرها.

---

(١) المسند ٣/٤٢٩ و ٤٣٠، ٥/٤٢٦ و ٤٢٧.

(٢) الحكومة النبوية للكتاني ١/٤٧٤.

الإقامة في الصفَّة مؤقتة:

تكلمنا عن هذه النقطة بما فيه الكفاية في الباب الأول، ولكننا نزيدها إيضاحاً بما يتناسب مع المقام، والادعاءات الآنفة الذكر.

كل الأدلة والنصوص والوقائع تدل على أن إقامة المهاجر كانت في الصفَّة مؤقتة، وكل الذين تحدثوا عن الصفَّة ذكروا ذلك وأكدوه، ولا نريد أن نطيل في النقل عن هذا الأمر، فإنه لا يحتاج إلى كثرة البراهين.

وإذا كانت تلك الإقامة دائمة، فما لنا نجد أن المنصوص عليهم من أهل الصفَّة ـ وليس المشكوك فيهم ـ قد غادروها، بل لم يغادروا الصفَّة وحسب وإنما غادروا المدينة أيضاً، ونذكر منهم على سبيل المثال:

أسماء بن حارثة استقر في البصرة وتوفي بها.

الحكم بن عمير سكن الشام.

دكين بن سعيد سكن الكوفة.

سالم بن عبيد الأشجعي سكن الكوفة.

طلحة بن عمرو سكن البصرة.

عبد الله بن حوالة الأزدي سكن الشام.

عقبة بن عامر الجهني سكن مصر.
عمرو بن تغلب سكن البصرة.
وغيرهم[1]...

وفي تقديري أنه ما أطال أحد المكوث في الصفَّة، إذا استثنينا أبا هريرة، بل كان الواحد منهم يسكن الأيام القليلة ريثما يجد المسكن والعمل.. ثم يغادرها.

أما أبو هريرة فكانت سكناه في الصفَّة لأمر آخر غير ما سكن من أجله بقية الذين نزلوا فيها، وكان ذلك رغبة منه لا اضطراراً، فقد جاء إلى المدينة في وقت متأخر، وذلك في العام السابع بعد فتح خيبر.. وأحب أن يلازم الرسول ﷺ فيعوض ما فاته من الوقت، وحرصاً على سماع أكبر قدر ممكن من حديثه ﷺ، ومعرفته أحواله، وتبركاً بخدمته ﷺ. وهذا لا يتوفر له إلاَّ إذا كان قريباً من بيت النبي ﷺ، فكانت الصفَّة هي المكان الوحيد الذي يؤمن له ذلك.

ولنستمع إليه، فهو يوضح لنا ذلك بقوله:

---

(١) انظر في ذلك حلية الأولياء ١/٣٣٧ ـ ٣٨٥ و ٢/١ ـ ٣٤.

(إنكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، وتقولون: ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله ﷺ بمثل حديث أبي هريرة، وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم صفق الأسواق، وكنت ألزم، رسول الله ﷺ على ملء بطني، فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا، وكان يشغل إخوتي من الأنصار عمل أموالهم، وكنت امرءاً مسكيناً من مساكين الصفَّة، أعي حين ينسون)[1].

وهكذا كانت الملازمة لها غايتها، علماً بأن أبا هريرة كان له سكن في المدينة. وهو المكان الذي تسكنه أمه، والتي طلب من النبي ﷺ أن يدعو لها بالهداية[2].

ثم إن أبا هريرة لم يكن فقيراً معدماً، ففي أول

---

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري (البخاري ٢٠٤٧، مسلم ٢٤٩٢).

(٢) نزل أبو هريرة مع الدوسيِّين الذين كانوا بمعية الطفيل بن عمرو الدوسي في حرة الدَّجَّاج، كما في طبقات ابن سعد ٣٥٣/١.

قدومه على النبي ﷺ في خيبر أسهم له ﷺ من الغنيمة. . وإذن فالذي أفقره هو إيثاره الملازمة لاستماع الحديث. وكان يستطيع الاستغناء عن الصفَّة لو أراد.

وهذه الملازمة الطويلة نسبياً للصفَّة جعلت أبا هريرة يكاد ينفرد بوصف أهل الصفَّة ووصف أحوالهم. فأكثر الأحاديث المتعلقة بهذا الموضوع من روايته، ولا نجد ما يماثل ذلك من صحابي آخر ممن نزلوا الصفَّة، ذلك أن مدة بقائهم فيها كانت قليلة.

نخلص من هذا إلى ما قررناه، وهو أن الصفَّة لم تكن أكثر من محطة في الطريق، يستريح فيها المرء، ريثما يهيِّىء شؤونه ثم يغادرها.

نزلوها اضطراراً:

نقول أيضاً: إن الذين نزلوا الصفَّة نزلوها مضطرين ـ كما شرحنا في الباب الأول ـ ولم يكونوا مختارين أو راغبين، ولكن الأوضاع الاقتصادية القائمة في المدينة يومئذٍ هي التي ألجأتهم إلى النزول في الصفَّة، ولو أتيح لهم النزول في غيرها لم ينزلوا بها.

قال الإمام ابن الجوزي: وهؤلاء القوم إنما قعدوا في المسجد ضرورة، وإنما أكلوا من الصدقة ضرورة، فلما فتح الله على المسلمين استغنوا عن تلك الحال وخرجوا[1].

التجرد للعبادة وترك التسبب:

ظن بعضهم أن أهل الصفَّة قد جردوا أنفسهم للعبادة ـ بمفهومها الخاص ـ وذلك أخذاً من ظاهر سلوكهم أثناء وجودهم في المسجد، والذي يغلب على ظني أن هذا الأمر لم يدر بخلدهم، والذي حصل: أنهم وجدوا أنفسهم في غير عمل فاستفادوا من الوقت، وإن الله يكره أن يكون العبد لا في أمر دنياه ولا في أمر آخرته.

فمن لم يكن عنده عمل يشغله ـ أياً كان ـ يحسن به أن يشغل وقته بما فيه نفعه، وبما أنهم كانوا في المسجد، فكان بدهياً أن يملؤوا أوقاتهم بما فيه التقرب لله تعالى من صلاة أو ذكر أو تلاوة قرآن. .

---

(١) تلبيس إبليس، لابن الجوزي ص ٢٣٣.

وهذا ما فهمه الإمام الغزالي عندما رتب أوراد الليل والنهار، فقال: وهذا للمتجرد للعبادة الذي لا شغل له غيرها أصلاً، ولو ترك العبادة لجلس بطالاً[1]. .

فإنه ليس المراد أن يترك العمل ويجلس للأوراد، ولكنه إذا كان جالساً بطالاً، فخير من البطالة شغل الوقت بما فيه الخير، وهذا ما فعله أهل الصفَّة.

وأما تركهم للدنيا فكان بعامل الضرورة، ولذا لما خرجوا من الصفَّة عادوا إلى ما فيه بقية الصحابة من العمل، وممارسة الحياة. . ولو لم يكن الأمر كذلك لاستمروا على وضعهم الذي كانوا عليه في الصفَّة. ونضرب مثلاً من سلوك أبي هريرة رضي الله عنه، والذي اعتبره بعضهم عريف أهل الصفَّة.

فقد عمل أبو هريرة أميراً على المدينة لمروان[2]، ولم يكن مخشوشناً في حياته ـ كما قال ابن سيرين ـ وكان يلبس ثوبين ممشقين. . آخذاً بأسباب الرفاهية[3].

---

(١) إحياء علوم الدين ١/٣٤٨.

(٢) حلية الأولياء ١/٣٨٥.

(٣) حلية الأولياء ١/٣٧٩. وقال في الإصابة في ترجمة =

وهـذا خبـاب رضي الله عنــه لم يلتـزم البعــد عن الدنيا، فعن يحيـى بن جعدة قال: عاد ناس من أصحـاب النبـي ﷺ خبّـابـاً، قـالـوا: أبشـر يـا عبـد الله، تـرد على النبـي ﷺ. فقال: كيف بهذا؟ وهذا أسفل البيت وأعلاه، وقد قال لنا رسول الله ﷺ: «إنما يكفي أحدكم من الـدنيا كقدر زاد الراكب»[1].

فهو يشير إلى ما يحويه البيت من متاع..

بل إن أهل الصفَّة وهم في الصفَّة قد طالبـوا بشيء من رفاهية العيش:

فقــد روى الإمــام أحمــد عن أبـي حــرب، عن طلحـة بن عمـرو قـال: (.. فكنت فيمن نـزل الصفَّــة، فرافقت رجلاً، فكان يجري علينـا من رسول الله ﷺ كـل يوم مد من تمر بين رجلين، فسلم ذات يوم من الصـلاة،

= أبـي هريرة: أخرج ابن سعد من طـريق قرة بن خـالد: قلت لمحمد بن سيرين: أكان أبو هريرة مخشوشناً؟ قال: لا، كان ليناً، قلت: فما كان لونه؟ قال: أبيض وكان يخضب، وكان يلبس ثوبين ممشقين.

(١) حلية الأولياء ١/ ٣٦٠.

فناداه رجل منا فقال: يا رسول الله، قد أحرق التمر بطوننا، وتخرقت عنا الخنف[1] ــ والخنف برود شبه اليمانية ــ، قال: فمال النبي ﷺ إلى منبره فصعده، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر ما لقي من قومه فقال: «لقد مكثت أنا وصاحبي بضعة عشر ليلة ما لنا طعام إلَّا البربر ــ والبربر ثمر الأراك ــ قال: فقدمنا على إخواننا من الأنصار، وعظم طعامهم التمر، فواسونا فيه، فوالله لو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكم، ولكن لعلكم تدركون زماناً ــ أو من أدركه منكم ــ تلبسون فيه مثل أستار الكعبة ويراح عليكم بالجفان»)[2].

وإذن فأهل الصفَّة كانوا يصبرون على تلك الحياة القاسية: ولهم كل الرغبة أن يأتي ما هو أحسن وأرغد. وكان رضاهم بعامل الضرورة.

وأما القول بأنهم تركوا التسبب، وأن الرسول ﷺ

---

(١) الخنف ــ ككتب ــ جمع خنيف، نوع غليظ من أردأ الكتان.

(٢) المسند ٣/٤٨٧ والحلية ١/٣٧٤ واللفظ له، وقال: السياق لوهب بن بقية.

أقرهم على ذلك ولم يأمرهم به، فذلك خطأ في الحكم، ووهم في الفهم، وكان الأحرى أن يسأل: لماذا لم يأمرهم ﷺ بالتسبب؟ ولماذا لم يتسببوا؟

وقد بيَّنت في الباب الأول أن الأوضاع الاقتصادية العامة لا تسمح بالعمل لقلته، وكثرة الطالبين له مع كثرة المهاجرين إلى المدينة، مع كون المدينة تلك البلد الصغير..

فالرسول ﷺ لم يأمرهم، لمعرفته بأوضاع البلد صغيرها وكبيرها، ومعرفته بقلة ميادين العمل، ولو أمرهم وهو يعلم ذلك ــ وحاشاه أن يفعل ــ لكان أمرهم نوعاً من الأمر بما لا يعقل! كمن يجد مريضاً منهك القوى ثم يطالبه بالعمل!

وهم لم يعملوا مدة مكثهم في الصفَّة، ولا شك بأن الواحد منهم كان يبحث عن العمل، فإذا وجده خرج، ولذلك وبشكل تلقائي يبقى في الصفَّة العاطلون عن العمل ريثما تتاح لهم فرصة العمل.

والذين يقولون بأنهم لم يتسببوا أو أنه ﷺ لم يأمرهم بذلك بعيدون كل البعد عن تصور الأوضاع

الاقتصادية في البلد، ولذا يحسن أن نعطيهم مثالاً واحداً يلقي لهم الضوء على ما نريد، وما نشك بأنهم قرأوا هذا المثال مرات. .

روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال: (أتى رجل لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يضيف هذا الليلة، رحمه الله» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً، فقالت: والله ما عندي إلاَّ قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: «لقد عجب الله عز وجل ــ أو ضحك ــ من فلان وفلانة» وأنزل الله تعالى:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1].

وفي رواية لمسلم تسمية الأنصاري بأبي طلحة

---

(١) سورة الحشر: الآية ٩.

رضي الله عنه[1].

فنحن كثيراً ما نقرأ الخبر فيسيطر علينا الإعجاب بهذا الإيثار، وفي زحمة هذا الإعجاب يغيب عن ذهننا الجانب الأهم الذي يسجله الخبر..

فأبيات الرسول ﷺ ليس فيها جميعاً ما يطعم إنساناً واحداً..

وهذا الأنصاري ليس في بيته إلَّا ما يطعم صبيته، أي ليس هناك طعام له ولا لزوجته، ولذلك امتنعا عن الطعام لتوفير الطعام للضيف..

أليست هذه الصورة كافية كمؤشر على الوضع العام لدى المهاجرين والأنصار جميعاً؟ فأين يمكن إيجاد العمل في مثل هذه الظروف الصعبة؟!

الحياة المثلى:

وظن بعضهم ـ كما رأينا ـ أن حياة أهل الصفَّة، كما فهمها هو في ظاهرها، من بطالة وعدم تسبب وترك

(١) عن تفسير ابن كثير عند الآية المذكورة.

للدنيا، وتكريس الوقت للصلاة والذكر.. هي الحياة المثلى التي يطلبها الإسلام!!

ولا نريد الإطالة في مناقشة هذه الفكرة، فالجواب أصبح واضحاً من خلال مناقشة الفقرات السابقة، ولكني أختصر القول فأسأل:

إذا كان الطريق الأمثل هو الذي كان عليه أهل الصفَّة، فلماذا كان قاصراً على المهاجرين، أليس من حق الأنصار أن يكون لهم نصيب في هذا الخير؟

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا كان قاصراً على العزاب دون المتأهلين، أليس للمتأهلين من حق في المشاركة بهذا الخير؟

ولماذا حصر هذا الخير في تلك الدائرة الصغيرة التي هي دائرة العزاب من المهاجرين دون غيرهم؟

أعتقد أن الأمر ليس كذلك.

(جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه

وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا، فأنا أصلي الليل أبداً، وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنَّتي فليس مني»)[١].

فالنبي ﷺ أنكر على هؤلاء التزام الواحد منهم جانباً من العبادة، دون تفريغ كل وقته لها، فكيف يسمح بأن يتفرغ الإنسان للعبادة.. إنه أمر مخالف للسنَّة الصريحة، وما كان مخالفاً للسنَّة فلا خير فيه.

تكريمهم وخدمتهم:

قال التجيبي في صدد الاستدلال على تميز أهل الصفَّة: (.. وفي صحيح مسلم عن أنس قال: «جاء ناس إلى النبي ﷺ فسألوه أن يبعث معهم رجالاً يعلمونهم القرآن والسنَّة، فبعث معهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم القراء. منهم خالي حَرَام، يقرأون

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٠٦٣).

القرآن ويتدارسونه وبالليل يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفَّة والفقراء، فبعثهم إليهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان...»[1] فهؤلاء لم ينههم النبي ﷺ [عن عدم التسبب] ولا نهى القراء عن خدمتهم..)[2].

أقول: إن قول أنس رضي الله عنه: «إنهم من الأنصار» هو من باب التغليب، أي أكثرهم من الأنصار وبعضهم من المهاجرين.

ويدلنا على ذلك ذكر عامر بن فهيرة بينهم؛ وهو ولا شك من المهاجرين، فقد كانت هجرته مع النبي وأبي بكر وكان يخدمهما بالطريق، وقد ذكر البخاري مقتله مع هؤلاء القراء وأنه كان واحداً من هؤلاء السبعين[3].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة برقم (١٤٧) ص ١٥١١.
وأخرجه البخاري أيضاً برقم (٤٠٩٠).

(٢) التراتيب الإدارية للكتاني ١/٤٧٧.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٠٩٣).

وفي الأسماء القليلة التي ذكرها ابن هشام من أسماء هؤلاء السبعين ــ في حادثة بئر معونة ــ ذكر نافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي[1] وهو من المهاجرين.

وإذن فهؤلاء السبعون الذين ذكرهم حديث مسلم كانوا خليطاً من المهاجرين والأنصار. وأكثرهم من الأنصار، وبعض هؤلاء المهاجرين هم من أهل الصفَّة.

ولذا قال الزرقاني في شرح حديث مسلم: وقوله (لأهل الصفَّة) لا يفهم أنهم ليسوا من أهلها.. فبعض أهل المحل يشتري لبعض[2].

وقد وصفهم ابن تيمية بقوله: لا يقوم ما يقدرون عليه من الكسب بما يحتاجون إليه من الرزق[3]. ويغلب على الظن أنه فهم هذا من حديث مسلم السابق.

ومهما يكن من أمر فليس في حديث مسلم أي دليل على تميز أهل الصفَّة عن غيرهم من الصحابة،

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/١٨٤.

(٢) شرح الزرقاني على المواهب ٢/٧٦.

(٣) الفتاوى ١١/٤٥.

وإنما الذي فيه وصف المحبة والألفة والتعاون الـذي كان بين المؤمنين.

وقد مرَّ جانب من هذا الموضوع في الباب الأول.

* * *

وإذ قد تبين وجه الصواب بعد هذه المناقشة نقول: إن تلك الاجتهـادات لم تستكمـل المعـطيـات الكـاملة لإصدار الحكم الصحيح فجـانبها الصـواب، وبات الأمـر جليـاً بأن الصفَّـة ليست أكثر من تـدبير اقتصـادي، اتخـذ للمساعدة على حل أزمة طارئة. وقد انتهى دورها بـانتهاء هذه الأزمة.

● ● ●



الفصل الرابع
جهاد أهل الصفة

يبدو أن هناك من افترى على أهل الصفَّة أنهم تخلفوا عن الجهاد.

وغريب أن ينسب لهم ذلك، ولكن ليس للمفترين حدود يلتزمون بها..

وقد رد ابن تيمية على ذلك فقال: وأما ما ذكر من تخلفهم عنه [ﷺ] في الجهاد فقول جاهل ضال، بل هم الذين كانوا أعظم الناس قتالاً وجهاداً، كما وصفهم القرآن في قوله:

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة الحشر: الآية ٨.

وقال في صفتهم:

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا... ﴾[1]، [2].

أقول: وسبق في آخر الفصل السابق الحديث عن استشهاد بعضهم في حادثة بئر معونة.

وقد نقلت قول الإمام الفخر الرازي في خروجهم في كل غزوة..

ومن الثابت أن بعض البكّائين في غزوة تبوك كان من أهل الصفَّة من أمثال العرباض بن سارية. وهم الذين نزل في حقهم قوله تعالى:

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٧٣.

(٢) الفتاوى ١١/ ٨٠.

حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾[1].

ويكفينا أن نسوق نموذجاً من حرص أهل الصفَّة على الجهاد، والأدلة كثيرة كثيرة. .

قال واثلة بن الأسقع ـ وهو من أهل الصفَّة ـ : نادى رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فخرجت وقد خرج أول صحابة رسول الله ﷺ فطفقت في المدينة أنادي: ألا من يحمل رجلاً له سهمه؟

فإذا شيخ من الأنصار فقال: لنا سهمه على أن نحمله عقبة[2]، وطعامه معنا.

فقلت: نعم.

قال: فسر على بركة الله.

فخرجت مع خير صاحب، حتى أفاء الله علينا[3]،

---

(١) سورة التوبة: الآية ٩٢.

(٢) أي بالتعاقب ومعناه: التناوب.

(٣) لم يحصل المسلمون في غزوة تبوك على غنائم، وإنما تمت الأمور على المصالحة، ولكن ذكر ابن سعد في طبقاته ١٦٦/٢ أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد في أربعمائة =

فأصابني قلائص، فسقتهن حتى أتيته، فخرج فقعد على حقيبة من حقائب إبله، ثم قال: سقهن مدبرات، ثم قال: سقهن مقبلات.

فقال: ما أرى قلائصك إلَّا كراماً.

قلت: إنما هي غنيمتك التي شرطت لك.

قال: خذ قلائصك يا ابن أخي، فغير سهمك أردنا[1].

= وعشرين فارساً إلى أكيدر.. وأجار خالد أكيدر من القتل حتى يأتي به رسول الله ﷺ، على أن يفتح له دومة الجندل، ففعل وصالحه على ألفي بعير وثمانمائة رأس، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، فعزل للنبي ﷺ صفياً خالصاً، ثم قسم الغنيمة فأخرج الخمس.. ثم قسم ما بقي بين أصحابه فصار لكل رجل منهم خمس فرائض. اهـ.

وكان واثلة بن الأسقع أحد أفراد هذه السرية التي كانت بقيادة خالد، وأصابه من الغنيمة القلائص التي ورد ذكرها.

(١) أخرجه أبو داود. انظر جامع الأصول رقم (٦١٨٨).

وذكر ابن سعد في طبقاته ٣٠٥/١: أن الشيخ الأنصاري الذي ورد ذكره في الخبر هو: كعب بن عجرة =

فهل هناك من رغبة واندفاع للجهاد أكثر من هذا؟

إن فرية تخلف أهل الصفَّة عن الجهاد لا تستحق المناقشة، ولكن أحببنا كما فعل ابن تيمية أن نلقي بعض الضوء على مدى شناعتها، وهل أهل الصفَّة إلاَّ من المؤمنين الذين انتصر الإسلام بهم وامتد شرقاً وغرباً؟!

ويكفيهم أن الآية الكريمة وصفتهم بأنهم أحصروا في سبيل الله ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض..﴾. قال ابن حجر: والمراد بالذين أحصروا: الذين حصرهم الجهاد، أي منعهم الاشتغالُ به من الضرب في الأرض ـ أي التجارة ـ لاشتغالهم به عن التكسب[1].

= رضي الله عنهم جميعاً.

أقول: وهذا الخبر يؤكد ما قررناه من الضيق العام الذي كان يخيم على المدينة بما فيها الأنصار، فهذا الشيخ الأنصاري لم يكن عنده فائض ظهر يحمل عليه واثلة، وإنما تنازل عن قسط من راحته في الركوب حيث يمشي على قدميه ليتيح لواثلة أن يركب جزءاً من الطريق، كما أنه أشركه في طعامه الذي هيأه لنفسه.

(١) فتح الباري ٣/٣٤١.

وهـذا مـا يؤكـد أن مجتمـع المـدينـة كـان صغيـراً لا يستوعب ذلك العدد، فهؤلاء لا يستطيعون السفر بسبب الحاجة إليهم في أعمال الجهاد، ولو أتيح لهم السفـر لما كانوا فقراء.

● ● ●

الفَصل الخامِس

أهـل الصفَّـة وَالسـمَاع

نشـأت لأهل الصفَّـة صورة في أذهـان بعض الناس أساسها الوهم، ثم جاء الخيال فأكمل البناء.

وانـظر معي إلى جانب من السؤال الـذي وجِّـه إلى ابن تيمية بشأنهم حيث يقول:

وهل تواجدوا على دف أو شبابـة، أو كان لهم حـاد ينشد الأشعار ويتحركون عليها بالتصدية ويتواجدون؟[1].

وقـد أجـاب ــ رحمـه الله ــ بـالنفي القـاطـع، وأن اجتماعهم إنما كان على سماع القرآن[2].

وأقول: يحسن بنا قبـل أن نتكلم في الموضـوع أن نعيش مشهـداً من حياة أهـل الصفَّـة، من خـلال الكلمـة

(١) الفتاوى ١١/ ٣٧.

(٢) الفتاوى ١١/ ٥٧ ــ ٥٨.

التي قد تكون قاصرة في كثير من الأحيان عن نقل العواطف والمشاعر والأحاسيس:

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: أتى علينا رسول الله ﷺ ونحن أناس من ضعفة المسلمين، ورجل يقرأ علينا القرآن ويدعو لنا، ما أظن رسول الله ﷺ يعرف أحداً منهم، وإن بعضهم ليتوارى من بعض من العري، فقال رسول الله ﷺ بيده ـ فأدارها شبه الحلقة ـ فاستدارت له الحلقة، فقال: «بما كنتم تراجعون؟» قالوا: هذا رجل يقرأ علينا القرآن ويدعو لنا، قال: «فعودوا إلى ما كنتم فيه»(٣)..

والأحاديث كثيرة في وصف عريهم وجوعهم..

فإذا استشعرنا الجو الذي كانوا يعيشون فيه:

ـ من شدة العيش من الناحية المادية والجسمية.

ـ ومن انشغال الأفكار بأقربائهم الذين لم يسلموا وهم حريصون على إسلامهم.

---

(١) حلية الأولياء ١/٣٤٢.

ـ ومن التفكير في حال المسلمين وهم قلة والأعداء حولهم في كل مكان من اليهود والمشركين وما ينتظرهم من مسؤوليات.

ـ والتفكير بوطنهم ـ مكة ـ وفيها أهلهم ومصالحهم وأبناؤهم.. وقد تركوا ذلك كله ابتغاء مرضاة الله تعالى.. وغير ذلك كثير..

فهل من مجال للتفكير في الغناء والتصفيق..؟!

إن اللهو صنعة الفارغين الذين يتقلبون في النعيم.

يقول ابن خلدون في صدد حديثه عن الغناء:

«.. فاعلم أنه ـ الغناء ـ يحدث في العمران، إذا توفر وتجاوز حد الضروري إلى الحاجي ثم إلى الكمالي وتفننوا، فتحدث هذه الصناعة لأنه لا يستدعيها إلاَّ من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره، فلا يطلبها إلاَّ الفارغون عن سائر أحوالهم تفنناً في مذاهب الملذوذات..»[1].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٦.

وهكذا إنما يطلبها من تأمنت لهم حاجاتهم الضرورية والكمالية.. ثم لم يكن لهم بعد ذلك من المثُل ما يسعون إلى تحقيقه، فيحصل الفراغ لديهم.. وعندها يأتي دور الغناء..

فهل كان أهل الصفَّة ممن يمكن عقلاً أن يكونوا من أهل الغناء والسماع؟!

إن جهل بعضنا يكاد يكون مطبقاً في معرفة السيرة وتخيل أجوائها، وكيف عاش الصحابة مع الرسول ﷺ.. والظروف الصعبة والقاسية التي أحاطت بهم في غالب أيامهم.

إن الذين يظنون أن السماع كان له دور في الصفَّة أولئك الذين فرغت أذهانهم من كل تصور إسلامي سواء أكان ذلك في السيرة أم في غيرها.

وهذا ما يلفت نظرنا إلى ضرورة العناية بتعليم السيرة حتى تتبخر تلك الأوهام بعد أن تستقر الحقائق في الأذهان، ويعلم المسلم كم هو الجهد المبذول في

إيصال الإسلام إليه[1].

● ● ●

---

(١) إن التصور الصحيح لحياة الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم أمر ضروري لكل مسلم. وهذا التصور لا يكون إلَّا بعد دراسة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والتربوية في تلك الفترة. وهذا الموضوع جديد في بابه، وقد قام المؤلف بمحاولة في هذا الميدان فقدم كتاب (السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة) وقد طبعه المكتب الإسلامي.





الفَصْل السَادِس

لَيسَ الفقرُ مِمّا يُطلب

عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يخرّ رجال من قاماتهم في الصلاة من الخصاصة[1] ــ وهم أصحاب الصفَّة ــ حتى تقول الأعراب: هؤلاء مجانين، فإذا صلّى رسول الله ﷺ انصرف إليهم فقال: «لو تعلمون ما لكم عند الله تعالى لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة»[2].

فهمَ بعضهم من هذا الحديث وأمثاله أن الفقر شيء يسعى إليه.

وإنما يدخل الخطأ إلى الفهم عندما ينظر إلى النص بعيداً عن النصوص الأخرى، والإسلام دين كامل

(١) الفاقة والجوع الشديد.

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حديث صحيح.

أتمه الله تعالى وهو الصراط المستقيم، فلا تعارض بين نصوصه، وإنما تتعاون النصوص جميعاً في بيان شريعة الله تعالى.

نقول ــ بعد هذا ــ لو كان الفقر شيئاً يسعى إليه لما استعاذ منه ﷺ في قوله: «اللَّهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر»[1] فقرن الفقر مع الكفر.

ولو كان كذلك لما حثَّ على العمل بقوله: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده»[2]، وقال: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»[3].

ولو كان كذلك لما حذَّر ﷺ من المسألة بقوله: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في

(١) أخرجه النسائي وصححه ابن حبان عن أبي سعيد، كما في كشف الخفا برقم (١٩١٩).
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري.

وجهه مزعة لحم»[1].

ولو كان كذلك، لما كان قوله ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة»[2].

* * *

إذن كيف نفهم النص الأول؟!

الإسلام دين يتعامل مع الواقع، ومنذ وجدت الدنيا فيها الفقير وفيها الغني.. وقد جاء الإسلام بنظامه الكامل الذي يكفل للفقير حقه وكرامته، ولكن هل يقبل من الفقير أن يستسلم للفقر ولا يسعى؟! هذا الذي لا يقبله الإسلام. فكيف يقبل أن تترك جماعة من الناس العمل وتجلس باسم العبادة وتعيش على أموال الصدقات.. بحجة الحديث السابق الذكر.

إن أهل الصفَّة لم يسعوا إلى هذا الأمر، ولكن ظروفاً كثيرة متشابكة أوصلتهم إلى ذلك الواقع، فصبروا

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.

فكان لهم أجرهم الكبير بهذا الصبر وهو ما يشير إليه الحديث، ولما تغيرت بعض الظروف خرجوا يسعون ويمارسون الحياة بجد ونشاط كبقية الناس من الصحابة.

قال قتادة في وصف الصحابة: كان القوم يتبايعون ويتجرون، ولكنهم إذا نابهم حق من حقوق الله لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله حتى يؤدوه[1].

وإذن فمن أصابه الفقر ولم يقدر على دفعه، فرضي بما قدِّر عليه مع سعيه، فهذا له الثواب مقابل صبره.

وإلَّا فمن أين تجهز الجيوش للدعوة إلى الله، ومن أين يكون الجهاد بالمال الذي حث عليه القرآن في آيات كثيرة.. وكيف نفهم المثل الذي ضربه القرآن للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل.. وهل يكون ذلك إلَّا بوجود الأغنياء..؟!

* * *

إن الإسلام يرفض أن يتصرف الإنسان تصرفاً يؤدي إلى الفقر، بل ويمنع هذا التصرف. قال سعد بن

---

(١) ذكره البخاري في مقدمة الحديث رقم (٢٠٦٠).

أبـي وقـاص: (يا رسـول الله: إن لي مـالاً كثيـراً، وإنمـا يـرثني ابنتي، أفـأوصي بمـالي كله؟ قـال: «لا»، قـال: فبالثلثين؟ قال: «لا»، قال: فالنصف؟ قـال: «لا»، قال: فـالثلث؟ قـال: «الثلث، والثلث كثيـر، إن صـدقتـك من مـالك صـدقـة، وإن نفقتـك على عيـالـك صـدقـة، وإن ما تأكل امرأتـك من مالـك صدقـة، وإنك أن تـدع أهلك بخيـر ــ أو قـال: بعيش ــ خيـر من أن تـدعهم يتكففـون الناس»)[1].

والحديث واضح لا يحتاج إلى بيان..

وفي صحيح مسلم عن جابر قال: (أعتق رجـل من بني عـذرة عبداً لـه عن دبر[2]، فبلغ ذلـك رسـول الله ﷺ فقـال: «ألك مـال غيره؟» قـال: لا، فقال: «من يشتـريـه مني؟» فاشتراه نعيم بن عبد الله العدوي بثمانمائـة درهم، فجـاء بها رسـول الله ﷺ فـدفعهـا إليـه، ثم قـال: «ابـدأ بنفسك فتصدق عليهـا، فإن فضـل شيء، فلأهلك، فـإن

(١) متفق عليـه. رواه البخاري مختصـراً بـرقم (٢٧٤٤)، ورواه مسلم ــ واللفظ له ــ برقم (١٦٢٨/٨).

(٢) أي علق عتقه بموته، فقال: أنت حر يوم أموت.

فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا»، يقول: فبيْنَ يديك وعن يمينك وعن شمالك)[1].

وهكذا أبطل ﷺ تصرف هذا الصحابي على الرغم من أن فعله قربة لله تعالى، وذلك لأنه لم ينظر في حق نفسه وأهله ومن يلوذ به.

* * *

هذا ومما ينبغي الإشارة إليه، أنه لم يثبت عن أهل الصفَّة أنهم سألوا أحداً من الناس في يوم من الأيام، وإنما كانوا عند شدة الحاجة يذكرون أمرهم إلى رسول الله ﷺ..

ونسوق مثالاً يوضح لنا ذلك ويبرهن عليه:

عن واثلة بن الأسقع قال: (حضرنا رمضان ونحن في الصفَّة فصمناه، فكنا إذا أفطرنا أتى كلَّ رجل منّا رجلٌ فأخذه فانطلق معه فعشاه، فأتت علينا ليلة لم يأتنا أحد، ثم أصبحنا صياماً، ثم أتت القابلة علينا فلم يأتنا أحد،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٩٩٧).

فانطلقنا إلى رسول الله ﷺ فأخبرناه بالذي كان من أمرنا، فأرسل إلى كل امرأة من نسائه يسألها هل عندها شيء؟ . .)[1].

وهكذا بات القوم طاوين ولم يسألوا أحداً . .

والخلاصة: إن الإسلام لا يقبل فكرة ترك الدنيا، والإقبال على العبادة[2]، وأن يكون الإنسان عالة على غيره. وإنما عليه أن يسعى في دفع الفقر . . فإن أصابه فالعلاج هو الصبر، والأمل في ثواب الله تعالى.

● ● ●

---

(١) حلية الأولياء ٢/٢٢.

(٢) من الخطأ أن نقصر فهم لفظ «العبادة» على الصلاة والصوم . . فالعبادة في المفهوم الإسلامي هي طاعة الله تعالى في كل مجالات الحياة . . هذا ما فهمه السلف: (قال ابن المبارك ــ وهو في الغزو مع إخوانه ــ تعلمون عملاً أفضل مما نحن فيه؟ قالوا: ما نعلم، قال: أنا أعلم، قالوا: فما هو؟ قال: رجل متعفف ذو عائلة قام من الليل فنظر إلى صبيانه نياماً منكشفين فسترهم وغطاهم بثوبه، فعمله أفضل مما نحن فيه) [الإحياء ٢/٣٢].

خَاتِمَة

هذه هي الصفَّة..

وأولئك هم نزلاؤها.

صبروا في سبيل دعوتهم.. وتحملوا من أجل إيمانهم.

وكانت مرحلة ابتلاء تجاوزوها، الواحد منهم بعد الآخر.

كما كانت مرحلة في حياة الدعوة تجاوزتها كما تجاوزت غيرها من الصعاب.

وكان العامل الأهم الذي ساعد على تجاوزهم.. هو شخصية الرسول الكريم ﷺ وهي تقود الدعوة وتبلغ الرسالة.

لقد كان لهم في رسول الله أسوة حسنة.. وما كنا نعتقد أنهم كانوا قادرين على تجاوز تلك العقبة، لولا أن

رســـول الله . . كــان يعيش مثلهم . . يـــواسيهم بنفســه . . فيكون لهم العزاء بذلك . . فإذا ما ضاق بهم الحال نظروا إلى ما هم فيه، فوجدوا أنفسهم يشاركون الرسول ﷺ فيما هو فيه من مثل حياتهم . . وعنـدها يهـون الصعب، ويكبر الأمل، ويغيب الضعف.

وهذا هو دور القيـادة . . إنها المـواساة بـالنفس قبل كل شيء آخر.

ولئن كـان من حكمة عيشـه تلك ﷺ مواسـاة أهـل الصفَّـة وأمثـالهم . . فقـد فقـه أئمـة العـدل والخلفـاء الصالحون في هذه الأمة: أن هذا المنهج هـو نمط الحياة التي ينبغي أن يعيشها كل أولئك الذين يوليهم الله أمر هذه الأمة، فكان التزام الفقر منهم تأسياً وفقهاً[1].

وقد أوضح علي رضي الله عنه ذلك بقـوله: إن الله فـرض على أئمة العـدل أن يقدروا أنفسهم بـالعـوام لئـلا يشنع على الفقير فقره[2].

---

(١) انـظر في تفصيل هـذا الموضـوع بحث «الفقر الملتـزم» في كتاب (هكذا فهم السلف) للمؤلف.

(٢) قـال علي ذلك عنـدما عـاتب عاصم بن زيـاد في ابتعاده عن =

وذلك هو الفقه في دين الله.

• • •

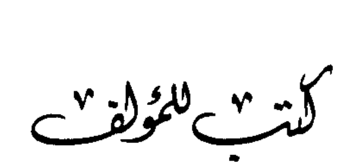
= الدنيا وزهده فيها. فقال عاصم: فعلام اقتصرت أنت يا أمير المؤمنين على لبس الخشن وأكل الجشب؟ فأجابه علي بقوله المذكور.

الفهـرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

● ● ●



١ ــ من معين السيرة.

٢ ــ السيرة النبوية (تربية أمة وبناء دولة).

٣ ــ أضواء على دراسة السيرة.

٤ ــ هكذا فهم السلف.

٥ ــ تحقيق المواهب اللدنية للقسطلاني (٤ مجلدات).

٦ ــ الفن الإسلامي (التزام وإبداع).

٧ ــ دراسة جمالية في ثلاثة أجزاء:

(١) الظاهرة الجمالية في الإسلام.

(٢) ميادين الجمال.

(٣) التربية الجمالية في الإسلام.

تحت الطبع:

١ ــ المهذّب من (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي.

٢ ــ تقريب (طريق الهجرتين) للإمام ابن القيم.


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



تطلب جميع كتبنا من :

دار القلم: دمشق: ص ب: ٤٥٢٣ ت: ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية: بيروت: ص ب: ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير

جدة: ٢١٤٦١ ص ب: ٢٨٩٥